عواصف تواجه الإسلام

بقلم/

حاتم إبراهيم سلامة

إهداء

إلى أخي الحبيب الدكتور إبراهيم حسن

أهدي إليك هذا الكتاب لما لمست فيك من رشد الفكر واتزان الوعي وسلامة الفهم، وأصالة التدين والتزام الحق..

دمت أخا كريما وصديقا وفيا.

مقدمة

إن المتأمل في مسيرة الفكر المعاصر يدرك أن الإسلام اليوم يمرُّ بمرحلةٍ من أشد مراحله التاريخية تعقيداً؛ حيث تكالبت عليه "عواصف" فكرية عاتية، لم يكن القصد منها مجرد النقد أو الحوار، بل كانت تهدف إلى زعزعة الثوابت، واقتلاع الجذور، وتشويش الرؤية لدى أبناء هذا الجيل.

هذه العواصف لم تأتِ من اتجاه واحد، بل هي رياحٌ متقاطعة؛ فمن جهةٍ، تهبُّ عواصف "العلمنة" التي تحاول جاهدةً تجريد الإسلام من طابعه الشمولي، وحصره في طقوسٍ باردة لا روح فيها، مستخدمةً سلاح الشبهات لإسقاط هيبة التشريع في القلوب. ومن جهةٍ أخرى، تثور عواصف "الغلو والتشدد" التي اتخذت من الدين شعاراً ومن العنف والضيق مسلكاً، فجعلت من سماحة الإسلام قسوة، ومن رحمة الشريعة نقمة، مما ولّد انحرافاً في التقويم وشططاً في التفكير، فكانوا -بجهلهم- أشدَّ خطراً على الإسلام من أعدائه.

لقد جاء هذا الكتاب، الذي أسميته (عواصف تواجه الإسلام)، ليكون محاولةً جادةً لرصد هذه التيارات، وتحليل هذه "العواصف" بمنهجيةٍ وسطيةٍ رصينة. فجمعتُ فيه جملةً من المقالات التي كُتبت في خضمِّ هذه الصراعات، حرصتُ فيها على:

كشف الزيف العلماني: بالرد العلمي المنهجي على الشبهات التي أُلصقت بالإسلام ظلماً وعدواناً.

تفنيد دعاوى الغلو: بمواجهة التيارات التي جنحت نحو التكفير والتشدد، وبيان مفارقتها لمنهج السلف الصالح.

تصحيح المفاهيم: بالوقوف في وجه الشطط الفكري الذي أصاب بعض التيارات الدينية، وإعادتها إلى ميزان الوحي الصحيح بعيداً عن الانفعال أو الانحراف في التقويم.

إن مواجهة العواصف لا تكون بالاختباء منها، بل بالوقوف في وجهها بوعيٍ مستنير، وحجةٍ قاهرة، وإيمانٍ راسخ بأن هذا الدين، مهما اشتدت عليه المحن، يظلُّ كالنخلة أصلها ثابت وفرعها في السماء.

إن هذا الكتاب ليس مجرد ترف فكري، بل هو (شهادة مستحقة) في زمن اختلطت فيه المفاهيم. لقد حاولت في طيات هذه المقالات أن أستنهض العقل المسلم ليكون عصياً على الاستلاب، مدركاً أن قوة الإسلام تكمن في قدرته على الصمود أمام عواصف التشكيك وجبال الجمود في آن واحد، فالحق لا يحتاج إلى صراخ، بل يحتاج إلى نور يتبدد به ظلام الشبهات.

أسأل الله عز وجل أن يكون هذا العمل نافعاً للمسلمين، حجةً للحق، سداً في وجه الباطل، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

حاتم إبراهيم سلامة

سنجرج- منوف- منوفية

متدينون يضرون بالإسلام

بعض القراء يظنون أن ما أكتبه لهم وحدهم، وأنه لا يوجد في الدنيا غيرهم وحدهم، ولا يجب الاعتراف فيما يقرؤونه لأي كاتب إلا أن يكتب لهم وحدهم.

وهذه إشكالية كبرى لا يعاني أرقها إلا الكاتب وحده، الكل يتنازعه ويريده أن ينزل على هواه ورغبته، هو بينهم كفريسة بين جمع من الأسود، كل منهم يمزق فيها من طرفه ووجهته يريدها له.

المتدينون لا يقبلون إلا أن أكتب عنهم وعما يمثلهم، وغير المتدينين يستاؤون لو كتبت باسم التدين، ويريدونني أن أعبر عنهم وعن أفكارهم، والجميع يجب أن يعلم ابتداء أن قلمي تقرأ له كل الأطياف والانتماءات والأفكار، وأنا أخوض به بين هؤلاء جميعا على شاطئ الحق وفيما يخدم الحقيقة.

كتبت فيما سبق مقالا عن المطربة الشهيرة أم كلثوم، ورصدت من حياة وتصريحات المرأة ارتباطها بالقرآن الكريم منذ صغرها، وكيف أشادت به وبالرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها، فإذا بطائفة من القراء تعترض وتتذمر وتتخيل أنني أشيد بالمرأة التي يناصبونها العداء لأنها مطربة، وحجتهم أن الطرب وآلاته مذموم في الإسلام، ويعدونها من دعاة المجون والعشق الذي يصرف المرء عن الحب الإلهي، بل أخذ بعض القراء يرميني بالأدلة على حرمة الطرب والغناء، وكأنني بها جهول أو لم تخبرها معارفي من قبل، رغم تخصصي الديني وتدريسي وخطبي في المساجد سنوات طوال.

ورغم أنني في المقال لم أمدح المرأة في شيء، وكان كل اهتمامي عنها هو تصريحها بأثر القرآن في نفسها واحترام الرسول وزوجه، وإذا بأحدهم يقول لي: رسولنا أعظم من أن ينتظر إشادة من مثلها. ثم يقول لي آخر: اهتم بالصالحين فهم أولى الناس بالحديث والرواية

والكتابة.. وأنا لا أعلم إلا أنني أقضي حياتي كلها في الحديث عن الصالحين، فكان منه توجيهًا عجبًا.

ولنفرض أن أم كلثوم داعية مجون، أليس من الجميل والمهم والخادم للإسلام أن نعرض تصريحها باحترام الرسول والقرآن؟ إن الملايين تعشق أم كلثوم، أليس في تصريحها هذا توجيه لكل محبيها باحترام الرسول والقرآن وقراءة السيرة النبوية والتفاسير، حتى المطربات منهن، ألا يمكن أن يقلدنها في هذا فيكون سبيل هداية لهم ولهن!؟

إن الذين رفضوا المقال بحجة أن رسولنا أرفع من أن ينتظر شهادة منها، لا شك مخطئون، فكل شيء يجب أن يسخر في خدمة الإسلام، وكل ما يمكن أن يكون مفيدا للإسلام والإسلام وحده، مقدم على كل شيء.. ورسولنا الكريم بشر، وهو داعية للإسلام مُرغب في تعظيمه واتباعه، فإذا أشادت امرأة شهيرة بالنبي والقرآن، فهو يفيد الإسلام والتدين في المقام الأول، وهنا لا يقبل أن نقول كلاما من مثل هذه الاعتراضات.

المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها يتغنون بكتاب (الخالدون ١٠٠ أعظمهم محمد صلى الله عليه وسلم) للكاتب اليهودي الأمريكي مايكل هارت، والمفكر المسلم الكبير دكتور عماد خليل ألف كتابا قيما تحت عنوان (قالوا عن الإسلام) جمع فيه شهادات الغربيين عن ملتنا وديننا، فهل يستساغ أن يأتي اليوم قاصر الفكر ليرد كل هذه الشهادات والإشادات التي تخدم الإسلام ودعوته، بحجة أن النبي أرفع من شهاداتهم ولا ينتظر مثلها؟!

ما هذا الخبل المأفون؟!

هو تماما ما يتشابه مع هذه القضية الخطيرة التي رصدها شخنا البيومي رحمه الله حينما ذكر أن بعض الكتاب الغربيين قد أنصفوا الإسلام، وتعرضوا في سبيل ذلك إلى هجوم عنيف، لأنهم أيدوا الحق ولم يخالفوا ضمائرهم.. لكنهم مع إشادتهم بالإسلام لا يُعرف أنهم أيدوه في كل شيء، بل لعل لهم معه خلافات وآراء مغايرة، فلا يقبلوه كله حسب أفكارهم ومعتقداتهم التي نشأوا عليها، ومنهم (جوستاف لوبون).. فإذا بنفر من الكتاب المسلمين، يتركون كل ما كتب الكاتب من إنصاف لحضارتهم وتاريخهم وأمتهم وجميلها على البشرية،

ويعدون على ما أورده في كتبه مما يخالف الإسلام، ليشنوا عليه حربًا شعواء، ويتربصوا به، ويظهرونه بصورة من يدلس أو يضع السم في الدسم، وأن ما أظهره من إيجابيات لا قيمة له لأنه أنكر أو اختلف مع الإسلام في شيء، استنكر البيومي هذا الموقف وهذه العماية التي تفتقد الحكمة والدراية والبصر بأحوال هؤلاء الناس والطريقة اللائقة للاستفادة مما قدموه من خدمات، وتجنب وإعذار ما خالفوا في الإسلام، كما أن هذا الموقف يضر كثيرا بما قدموه من خدمات جليلة وشهادات منصفة أفزعت الغرب وضايقته.

ثم أراد أن يوقف هؤلاء المتحمسين على خطورة الأمر ووعورة الموضوع، فذكرهم بما كتبه الحاقدون على الإسلام، وما ألصقوا به من التهم والمعايب، وكيف شوهوا حقيقته، وأرادوا خداع الناس بإفكهم؟ فعل البيومي ذلك حتى يحمدوا تصرف من أنصف الحضارة الإسلامية، وله بعض المخالفات التي هي في حقيقتها طبيعية بحكم عدم انتمائه للإسلام.

وهي نظرة وسطية معتدلة عاقلة حكيمة.. فلا تفسد على الإسلام مكاسبه التي قد ينالها، ويحصل عليها ممن لا ينتمون إليه، ولا يجب إفسادها بشن الحرب عليه قاطبة.

هل نرد هذا المكسب الكبير للإسلام من أجل مخالفات الرجل لبعض مفاهيم التعاليم الإسلامية؟ أم تسوقنا الحكمة للاستفادة مما ذكر وأشاد؟

ونفس القضية عرضها شيخنا الغزالي رحمه الله في كتابه (مع الله) مع الكاتب الغربي تومس أرنولد، فقد أنصف الإسلام رغم مخالفته له في كثير من الأمور.. وعلى هذا النهج كان البيومي والغزالي يقفان أمام كثير من المسلمين الذين يحاولون طمس الحقائق التي قدمها كثير من الفلاسفة الغربيين، ويحاسبونهم وكأنهم كتاب مسلمون ولا يقدرون ظروفهم وأوضاعهم، إذ يكفينا منهم إنصافهم، ومخالفتهم في بعض الأمور المتوقعة.

يدرسون دينك أكثر منك!

يعجب المرء حينما يرى مسيحيا أو يهوديا، يدرس الإسلام، وينطق بكثير من الآيات والأحاديث التي لا يحفظها المسلم الذي هو أحق وأولى بكتابه ونبيه.

بل العجب الأكبر حينما ترى هذا المسيحي أو اليهودي، أكثر تأملا وفهما ووعيا للآيات الكريمة أكثر من المسلم، ثم يسوقك العجب من حاله، إلى الحيرة من بقائه على دينه، مع إدراكه لحكمة الإسلام وجمال بيانه وروعة شرعه.. لكن غالب من يدرسون القرآن والحديث من هؤلاء، ويلوكون بوجدانهم وبصائرهم روعة دقائقه وأسراره، لا يتعدى الأمر لديهم كونه، مصدرا من مصادر الجمال والحكمة، أما أن يكون كتاب هداية ومنهج واتباع، فهذا لا يراودهم في شيء، وعلى هذا تعاملوا من قديم الزمان، فهم مع تراثنا العقدي، كأحدنا حينما يحفظ حكمة لفيلسوف أو حكيم أو مصلح من المصلحين في تواريخ الأمم الغريبة.

كانت هناك حكاية عجيبة عن يهودي، جاء فيها أن رجلا بالقيروان أراد الحج، فتردد خاطره في سفره بين البر والبحر، فقال: إذا كان صبيحة غدٍ أول رجل ألقاه أشاوره؛ فحيث يرجح لي أحكم به، فأول من لقي يهودي، فتألم، ثم عزم وقال: والله لأسألنَّه، فقال: يا يهودي، أشاورك في سفري هذا، هل أمشي في البر أو في البحر؟ فقال له اليهودي: يا سبحان الله! وفي مثل هذا يَسأل مثلك مثلي؟ ، ألم تر أن الله سبحانه يقول لكم في كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ فَقَدَّم البر على البحر، فلولا أن فيه سرًا ما قدمه، وهو أولى بكم، إلا إذا لم يجد المسافر سبيلا إلى البر.. قال: فعجبتُ من كلامه وسافرت في البر فلقيت خيرا كثيرا.

ويُذكر عن ابن حجر العسقلاني -رحمه الله- صاحب "فتح الباري"؛ وكان هو قاضي قضاة مصر في وقته: كان يمر بالسوق على العربة في موكب فاستوقفه ذات يوم رجل من (اليهود) وقال له إن نبيكم يقول: "إن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر" وكيف ذلك وأنت في هذا الترف والاحتفاء! وهو يعني نفسه اليهودي في غاية ما يكون من الفقر والذل فكيف ذلك؟

فقال له ابن حجر -رحمه الله- : أنا وإن كنت كما ترى من الاحتفاء والخدم فهو بالنسبة لي بما يحصل للمؤمن من نعيم الجنة كالسجن ، وأنت بما أنت فيه من هذا الفقر والذل بالنسبة لما يلقاه الكافر في النار بمنزلة الجنة.. فأعجب اليهودي هذا الكلام وشهد شهادة الحق. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله.

والشاهد هنا هو العجب من حفظه لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، والاستشهاد به في الموطن الذي يريد ويرتئيه.. ولعل الاعجاب بالقرآن وجمال آياته الساحر، كان قديما من عهد النبوة، فقد ورد أن يهوديا جاء إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرؤون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت.. لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: وأي آية؟ قال: قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ: عشية عرفة في يوم جمعة.

أ إلى هذا الحد يبلغ التأثر بالقرآن، والغور في بحر معانيه؟ وممن؟ من قوم ليسوا على الملة؟

وقبل أن نتندر في إدراكهم لجمال القرآن وإعراضهم عن هديه، لابد أولا أن نتندر لحال المسلمين، الذين ابتعدت عقولهم وقلوبهم ومزاجهم عن القرآن وحفظه والعيش في دوحة نوره وفيضه.

أوهام إيمانية

هناك بعض الاشكالات النفسية أو الاوهام العقلية التي يتعجب منها المرء حينما يرى خلط بعض الناس بينها وبين حقائق الايمان واليقين.. وحينما تأملت أغلبها وجدتها ترجع في أسبابها الأولى إلى الجهل تارة، واتباع الهوى تارة أخرى.!

من زمن بعيد كنت أتعجب من هذا الذي يقول بملء فيه والسكينة تغمر لسانه وعينه : (الحمد لله ربنا راضي عني) وكنت حينما أنظر لحاله أجده من المفرطين في دين الله جملة وتفصيلا، صحيح أن الله أعلم بحاله، لكننا لنا الظاهر وقد قال الرسول الكريم صلوات الله

وسلامه عليه : أنتم شهداء الله في الأرض.. ودين الله يجب أن يظهر في حياة المسلم وينطق به حاله.. والحق أنني حدثت بعضهم وقلت له: كيف تزعم رضاء الله وأنت لا تصلي؟ فإذا به يقول: أشعر أن الله تعالى راض عني، والحق أن هذا من تلبيس إبليس ووهم كبير خدعته فيه نفسه.. فرضاء الله تعالى لا يتحقق إلا بالتزام شرعه وتطبيق تعاليمه.

وحينما قرأت اكتشفت شيئا مهما جدا يجب التنبه إليه وهو، أن هناك فرقا كبيرا بين رضاء الله والحالة النفسية، فربما يكون هناك رجل لا يجد هموما في الحياة ولا يتحمل أي مسؤولية، فعليه ألا يغتر بهذا ويظن أنه رضاء الله، فرضا الله لا تنال إلا بالجهد والتعب والعبادة المتواصلة.

ثاني هذه الحالات التي يقودها الهوى والزيف وسيطرة الجهل وتمكنه من النفس، ذلك الصوفي الذي يرتكب البدع والمحرمات ويضرب العقيدة في مقتل، ويزعم أنه يحب الله ورسوله، وإذا جئته بأحاديث البخاري ومسلم يوليها ظهره ويعرض عنها ويزعم أن طريق الله له حال أخرى لا يعرفه الفقهاء ولا البخاري ومسلم، وأن أهل الحقيقة غير أهل الشريعة، مع أن ابن تيمية يقول: "إن ولاية الله لا تنال إلا باتباع شرعه"

ما زلت أتذكر في قريتنا كيف كانت تقام الحفلات بالمولد النبوي الشريف ويتجمع رواد الطرق الصوفية وتلتف حولهم القرية كلها برجالها ونسائها وهم يطوفون في شوارعها بما يسمى (الزفة).. كانوا يفعلون ذلك والعصر يؤذن الله أكبر ولا يلبي أحد، فهل هذا يرضي الله ورسوله؟ أعتقد أنها تصرفات خرقاء لا تمس دين الله في شيء.

ولعل من هذه المسائل أيضا ما يتوهمه بعض السطحيين من أن المرء المسلم حينما ينصح عاصيًا أو ينهاه عن سوء، فإذا بهم يهيجون وينتفخون ويقولون: مالك وللناس دع الملك للمالك، هل تريدون أن تحكموا على الناس، هل تزعمون أنكم تملكون الجنة والنار؟ كلنا مذنبون فكيف تحلون محل الإله وتحكمون على الناس؟

وتنظر أنت مندهشا أمام هذا الهياج، وتنظر إلى نفسك ماذا فعلت؟ فلا تجد إلا أنك فقط قدمت النصيحة بما يرضي الله وبمنتهى الرفق واللين، ولكن هؤلاء هاجوا فقط لأنك

أشعرتهم بتقصيرهم، ولأنهم يرون في نصحك لهم أنك تريد أن تقول لهم :إنني أفضل منكم وأعلى منكم وأكمل منكم... وهي نظرة أناس مرضى يسيطر عليهم الهوى والشيطان، ولا يتقون الله ولا يؤوبون إلى الحق، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: شر إله عبد في الأرض الهوى.

وبعضهم يردد هذه الجملة الهاوية: -محدش عارف اللي بيني وبين ربنا- ليكن بينك وبين الله تعالى ما تظن، ولكن واجبنا الذي أمرنا به ربنا أن نقوم بواجب النصيحة التي ترونها تألها وتسلطا هكذا أمر الله المؤمنين أن يتناصحوا، فهل وعيتم أن هناك فرقا بين الحكم على الناس وبين النصيحة الهادئة الهادية اللينة.. إلا إن تلبيسات النفس والهوى جامحة عاصفة بالفكر والعقل تتمكن من الانسان إذا صادفت جهلا وغباء وحماقة وعبادة المرء لهواه ورأيه.

بهذا غلبونا

مازلنا إلى اليوم نعاني من بعض التصور الكهنوتي للدين، والنظر إلى كثير من مظاهر الاسلام بمظهر الرهبان الذين ينسلخون من الدنيا ويعزلون بين الدين وبين مظاهر الحياة.

هناك قوم تعمدوا أن يصبغوا الاسلام بهذا ويعزلوه من الوجود والاشتباك مع مظاهر الحياة، ليظل حبيس المحراب لا يخرج أبدا من باب المسجد، لكن الحقيقة والبداية لم تكن كذلك أبدا.. كنت في يوم من الأيام أقرأ صحيفة اللواء الإسلامي في المسجد، وبينما أنا أقرأ فيها منهمكا في سطورها، حتى مر من أمامي أحد رواد المسجد، وفي حركة سريعة منه ضرب الصحيفة بيده ناهيا إياي عن قراءة الجرنال في المسجد، والرجل الجاهل أسير صورة مستبعدة عن الاسلام الذي يحث على العلم والقراءة، ومتابعة أحوال المجتمع ومعرفة أخبار الناس، لقد ظن الصحيفة الدينية صحيفة عادية، واختمر في ذهنه أن من يمسكون بالصحف لا يجلسون إلا على القهاوي ويحلون الكلمات المتقاطعة أو يتابعون أخبار الفنانين والفنانات، وهذا مقام لا يليق بالمسجد، الذي هو للصلاة والعبادة فقط.. وهو تصور جاهل

أخرق لم يأت به الله ورسوله، لقد كان المسجد في حياة السلف الأول حياة وناديًا ومدرسة وميدانًا يقررون فيه كثيرا من شؤونهم، وما اختزل دوره إلا في عصورنا المتأخرة، حينما ابتعدت الافهام عن إدراك دوره في تقويم المجتمع.

يحكي أحد شيوخنا أنه كان له ولد تعب في تربيته وتقويمه وكان يستيئس من إصلاحه، فأشار عليه أصدقاؤه أن يصحبه إلى المسجد، ويجلسه في حلقة من حلقاته، ففعل الرجل وهو غير متفائل، ولكن كانت المفاجأة حيث صار الولد بعد فترة لم تطل، يسابق زملاءه في المدرسة، ويتنفس الرجل الصعداء، ويحمد الله على نعمة المسجد التي غيرت مسار ولده، وساقته ليكون فتى سويا كما يريد ويأمل.. والسلف العظيم قد جعلوا من المسجد موطن التربية والتعليم، وربطوا بينه وبين كل مظاهر الحياة، وجعلوه المنطلق في كل ما يهمهم من أمور الدنيا.. فعلى مقربة من طرسوس على شاطئ البحر الابيض المتوسط، أقيم ميدان للرماية في زاوية مسجد متواضع، فيه بضعة عشر فتى فقط، يقوم على تعليمهم القرآن شيخ معمم وقور، طويل اللحية، حديد البصر، مجعد الجبين، وفي الضحوة الكبرى يهرع الشيخ وفتيانه إلى ميدان الرماية، وكان إلى وقار الشيخوخة يتمتع بتحرك الشباب، ونشاط الرماية وخفة الجسم، والصبر على تعليم الصغار، وتدريبهم على الرماية.. ومر صليبي وهو يسير متنقلا في هذه الأرض، التي ترحل عنها قومه، دارسا معتبرا، فوقعت عينه على الشيخ وفتيته، واستوقفه حالهم، شيخ طاعن في السن ومعه فتية يعلمهم الرماية؟! وهم منهمكون في التدريب فتعجب الصليبي من هذا المشهد، ولكنه في غمرة عجبه لمح تلميذا صغيرا من بعيد يجره زميله ليذهب به إلى الشيخ، وما أن رآه حتى انهال عليه ضربا وتأديبا بعصا الخيزران، وقسا عليه كثيرا واشتد في قسوته، فاندفع الصليبي بغير شعور منه لينقذ الصبي، واقترب من الشيخ وأمسك بعصاته وسأل الشيخ برطانته الأعجمية عن ذنب الغلام؟ فقال الشيخ وهو يتوعد ويزمجر: إنه فر من ميدان الرماية، فأطرق الصليبي برأسه وهو يقول في نفسه: بهذا غلبونا.

ولا تحسبن أنني ابتعدت عن مغزى المقال وأخذت في الحديث عن الرماية وتأديب متدربيها وتعليمها للفتية والناشئة، ولكني أريد أن أذكرك أن هذه الرماية قامت بجوار المسجد، وأن المتدربين بعد أن كانوا يتعلمون القرآن في المسجد، كانوا ينطلقون إلى الرماية، فالمسجد كان المبعث، ومنه المنطلق، ومنه التربية، ومنه الفروسية.. في الوقت اليوم الذي لم نعد للمسجد أي دور في توجيه الحياة والمجتمع والناشئة، ولم يعد لشيخ المسجد نفسه أي إيمان بدوره في الحياة العملية بين المدعوين، فقط يلقي خطبته أو يلقن درسه، أمام أن يكون ذو تأثير في حياة من حوله فهو النمط الذي أميت ليحل محله مجرد موظفين لا يؤمنون برسالة ولا يعتدون بمهمة ولا يسعون إلى أي إصلاح.

ينبحون حول أسوار الأزهر

يمكن لك بكل سهولة أن تعرف إن كان هذا الكاتب منصفا محترما أم خائنا مأجورا، وذلك حينما تأتي سيرة الأزهر فتراه يتكلم أو يكتب مقالا يبرز فيه رأيه وخبيئته وانطباعه.

هناك تيار علماني إلحادي عنيف شرس يبغض كل ما ينتمي أو يعبر عن الدين، وبعد انتهاء الحرب مع التطرف والارهاب ومحو التيار الديني من الصورة، بدأ نباحهم يطال الأزهر بزعمهم أنه يتكلم عن فكرة الدين ويدعو لها، وأن مجرد وجود جهة تتبنى فكرة الدين في حد ذاته، يعد فرصة وسبيلا إلى مفرخة ونمو فكرة الارهاب والتطرف من جديد.

وللأسف قد أتيح لهؤلاء منصات ومنابر يردحون منها، ويبثون من خلالها خداعاتهم وأحقادهم وسمومهم، التي لا تكيد إلى الأزهر فقط، وإنما في الحقيقة يظهر بجلاء كيدها للإسلام نفسه، هؤلاء الكتاب اليوم يظهرون في تشكيلات منظمة، أو في هيئة تنظم سري يدبر في الخفاء، ويهدف إلى ضرب قبلة العلم وحصن الدين ومنبع الاعتدال والاستقامة، وحامل لواء الشريعة بفكرها السمح وطبعها المتسامي.

هؤلاء يتمسحون بذريعة حب الوطن والخوف عليه من الارهاب والتطرف، ولكن الحقيقة أنهم لا يعنيهم وطن ولا شعب، وإنما ينفذون رغبات أجندات خارجية، تريد هدم هوية الشعب المصرية ونشر الانحلال الفكري وضرب الثقة في الازهر الشريف وتقدير المصريين لعتباته وعلمائه.

منذ وقت قصير كتب كاتب علماني مشهور عبر تويتر ليقول: "هل انتبه أحد إلي أن التنظيم الإرهابي الذي أعلنت وزارة الداخلية اليوم أنها قضت علي عدد من عناصره يتزعمه مدرس بجامعة الأزهر هارب، وطالب بجامعة الأزهر هارب، كما أعلن بيان الداخلية، هل سنقرأ بيانا من الأزهر يدين عناصره الشاردة ؟"

والرجل لا شك لم يظهر بلاهة في هذا التصريح، بقدر ما أظهر غرضه وحقده الدفين، ومحاولة إثارة الغبار على الأزهر الشريف وجامعته العريقة؛ التي خرّجت الأعلام والوطنيين الكبار الذين خدموا مصر وكانوا من معالمها الزاهية.

أعجبني جدًا رد الصديق الصحفي الكبير (فتحي مجدي) على هذا التصريح الحقود بقوله: "وهل سمعت أن جامعة القاهرة أو جامعة عين شمس أو أية جامعة أخرى أصدرت بيانًا مماثلًا يدين أيًا من خريجيها المتورطين في أعمال عنف؟.. صحيح الغرض مرض." وصدق الصحفي الكبير، فنحن نعلم أن الدكتور أيمن الظواهري كان خريجا من جامعة القاهرة ولم يكن أزهريا، فهل فرض على جامعة القاهرة وقتها، أن تقدم بيانا تدين فيه انتساب ثاني أكبر شخصية في تنظيم القاعدة لأروقتها؟

وعلى الجهة المقابلة، لا تعدم مصر من كتابها المنصفين الأحرار المحترمين، الموضوعيين، فكاتب كبير مثل الأستاذ محمد سلماوي رغم اختلافي مع بعض رؤاه، إلا أنه طالعنا بمقال رصين في صحيفة الأهرام في عموده (جرة قلم) تحت عنوان (الدور الوطني للأزهر) المقال جاء صدمة لكثير من الكتاب المنفلتين الذين يحيكون المؤامرات للأزهر ليل نهار، ولا يكفون عن النباح حول أسواره ليشوشوا على مسيرته العلمية والوطنية المباركة.

ولعل مقال سلماوي وهو كاتب كبير له اسمه ووزنه واعتباره أن يصيبهم في مقتل، ففي الوقت الذي يبذلون فيه كثيرا من الجهود، ويلتف حولهم ضعاف الإيمان والفهم واليقين، يأتي مقال سلماوي ليفسد عليهم كفاحهم الضال الأثيم.

يقول سلماوي: " حسنا فعل الأزهر الشريف بإصداره ذلك البيان المهم الذى استنكر فيه بشدة الزيارة المشبوهة التي قامت بها مجموعة من الأئمة المسلمين في أوروبا لإسرائيل، ولقاءهم الرئيس الإسرائيلي وأعضاء الكنيست وزيارتهم لمتحف الهولوكوست مدعين أن زيارتهم للكيان الصهيوني المحتل، تأتى تأكيدا لمبادئ التعايش بين الأديان، وتأتى الزيارة في الوقت الذى تشن فيه إسرائيل حربا وحشية ضد الفلسطينيين فى غزة، وقتلت خلالها ٦٥ ألفاً معظمهم من الأطفال والنساء، بهدف إبادة الشعب الفلسطيني والاستيلاء على أرضه"

ولم يقف سلماوي عند هذا الحد بل ذكَّر القراء بالدور الوطني الخالد للأزهر الشريف عبر التاريخ حينما كان حاميا للثورة المصرية، ومنبعا لتوهجها ووجهتها حيث قال: " لقد أدان الأزهر الشريف تلك الزيارة، مؤكدا أن هؤلاء الأئمة لا يمثلون الإسلام ولا المسلمين، ويأتي هذا البيان الذى أصدرته دار الإفتاء في سياق المواقف الوطنية التاريخية للأزهر عبر التاريخ، ويذكرنا البيان بمواقف الأزهر وعلمائه المشهودة إبان الغزو البونابارتى لمصر عام ١٧٩٨ حيث لعب الأزهر دورا محوريا في الثورة التي اندلعت ضده، وكان مركزًا مهما للمقاومة، وكرس أئمته خطبهم لحث الناس على مقاومة الاحتلال، كما شاركوا في قيادة المظاهرات وفى الاشتباكات المسلحة ضد الغزاة، وكان الكثير من الثوار يحتمون داخل الأزهر هربًا من بطش الجنود الفرنسيين، وكان للأزهر شهداؤه، وقام الفرنسيون بإعدام ستة من كبار علماء الأزهر بسبب دورهم القيادي فى الثورة"

ويعلنها سلماوي بكل وضوح: "إن بيان الأزهر يأتي كامتداد طبيعي لذلك الدور الوطني الرائد" هذا هو الحديث الذي يجب أن نتكلم به عن الأزهر إن أردنا أن نتكلم، بدلا من هذا اللغو الدنيء فتكون كلمتنا شهادة منصفة، أما أن يكون من حملة الأقلام ممن يكيدون له هذا

الكيد، فعليهم أن يعلموا أنهم يكيدون للوطن لا للأزهر، لأن الأزهر جزء من الوطن وجزء أكبر من تاريخ الوطن.

قسيس يحفظ القرآن

انتشرت في الآونة الأخيرة بعض المقاطع المرئية في اليوتيوب لعالمة اللغويات المرموقة د- سهير السكري رئيس دائرة اللغة العربية بمنظمة الأمم المتحدة، وصاحبة كتاب "محو الأمية في عام واحد" المرأة التي تلقت تعليمها في أمريكا وصار تفكيرها وحياتها أشبه بحياة الغربيين، ورغم كونها متبرجة وتلبس الثياب القصيرة فوق الركبة، إلا أن أحاديثها المتكررة عن القرآن وضرورة تعليمه للنشء إلى سن السادسة كان شيئا مبهرا.

رفضت العالمة أن يُقبل الأطفال على الشعر والنثر، وإنما أكدت على القرآن بالتحديد، لغناه بالمفردات التي تكسب الطفل قدرة مستقبلية على النطق السلم والقوي.. ففي حوار لها مع الإعلامي محمود سعد ، ذكرت أنها يومًا سمعت قسيسا يلقي كلمة، بفصاحة وأداء قوي بياني دقيق، فلما انتهى من كلمته سألته الدكتورة سهير: ما السبب في فصاحتك هذه؟ فرد عليها القسيس بقوله: تعلمت القرآن في الدير بأسيوط.!

لقد كان ردا مدهشا من هذا القسيس النابه الفصيح على الدكتورة سهير، كما كان ردا من جهة أخرى ردا قاصما على المتحسسين من حفظ القرآن وقراءته كي لا يجرح مشاعر المسيحيين.

تأتي هذه المقاطع اليوم، وتعود للذاكرة في هذا الأوان، لتكون ردا على الدعوى الساذجة التي أججها إعلامي مأجور، لنبذ تعليم وحفظ القرآن في المدارس من أجل المسيحيين، لتظهر مدى الفقد والخسارة التي يجنيها الطلاب وأولهم المسيحيين في استلهام القدرات اللغوية والنطق الراشد السليم، ليس على المسيحيين أن يدرسوا يحفظوا القرآن ككتاب دين،

وإنما هو في غايتهم كتاب بلاغة، إن أرادوا صقل قدراتهم البيانية، وتقويم لسانهم واستقامة نطقه.

رفضت العالمية الواعية دراسة الأشعار وقراءة الكتب، وركزت تحديدا على القرآن الكريم كأفضل الطرق لتحقيق الملكات اللغوية للأطفال.

ونوهت إلى مؤامرة الاحتلال على الكتاتيب التي تحفظ القرآن من خلال دراستهم لطبيعة الشخصية المسلمة التي حققت النجاح والغلب في الأرض، لقد أرجعوا سبب كل هذا إلى الكتاب الذي يلقن الطفل المسلم آيات القرآن وقرروا إلغاء القرآن الكريم، والاستعاضة عنه بمدارس لغات حديثة، ونجحوا في هزيمة المسلمين وتجريدهم من أصالتهم ومعاني قوتهم التي تبدأ من اللغة، ومن القرآن الكريم المتمثل في ٥٠.٠٠٠ كلمة، تضع هذا الطفل على مدارج العبقرية والقوة.

إنهم لا يمثلون الأزهر

يقول قائل صوفي تزيا بزي الأزهر الشريف: "من قرأ لابن تيمية في العقيدة؛ ضل! ومن قرأ له في الفقه؛ نبغ!" وعن نفسي فما رأيت كلامًا يضج بالضلال مثل ما رأيت في هذا الكلام، وهي عندي قولة زور لا يرجى بها ولا منها رضاء الله ورسوله وهدي دينه، بل هي تنفيس أحقاد، وعصبية تقاد، وجهالة تمور وتزداد.

ومن المؤسف أن ينطق بها أزهري، يحمل فوق رأسه العمامة، وهو خصيم العدل والإنصاف، بمنهج نكر، لم يكن عليه سادتنا من علماء الأزهر الأجلاء، فما أعلى مكانة ابن تيمية مثل علماء الأزهر الشريف، ولا دبج في شخصه المؤلفات والمناقب مثل علماء الأزهر الشريف.

وأحب القول ابتداء بأنني لست من السلفيين ولست من أنصار و أتباع المذهب الوهابي، وإنما أنا رجل منصف يعرف أقدار العلماء بعيدا عن شطط المذاهب وشطح الطرق، وعصبية التيارات.

يا ويلي، كيف لرجل ينتمي للجامعة الأزهرية أن ينطق بمثل هذا الكلام إن صحت نسبته إليه؟

[من اتبع ابن تيمية في العقيدة ضل، وفي الفقه نبغ!!]

ربما يكون مخطئا أو نخالف كلامه فيما اعتمدنا من آراء، لكن لا يصل الأمر أن نتهمه بالضلال ومجافاة الرشد.. وسبحان الله.. في الوقت الذي تتصاعد فيه شهادات أئمة الإسلام للإمام ابن تيمية بالتفرد والعبقرية، يحكم عليه العشماوي بأنه ضال ومن يقرأ له يضل.! لعمري إننا أمام تيار صوفي بشع، يقمع خصومه الفكريين ويقصيهم، ويتهم بالضلال كل من يخالفه الرأي والمنهاج، وهو تيار متشدد متطرف لم يكن عليه منهج سادتنا الصوفية ممن عرفناهم وعاصرناهم في القديم والحديث.

إن هذا التيار الإقصائي يريد أن يصبغ مصر والأزهر الشريف بصبغته المتطرفة، ولا يملك من أدواته في هذا غير التنحية والبطش بكل المخالفين، ممن عرفت الدنيا كلها أنهم أعلام الهدى والنور.

وأنا هنا أقرر أن الميدان لا يتسع للحديث عن فضائل أعظم أئمة الإسلام فالآثار والشواهد في مناقبه عظيمة لا تحصى، وهو أمر معلوم مخبور، ولكننا هنا نصب جام غضبنا على هذا التعصب المقيت، الذي سولت له نفسه أن يحكم على إمام جليل بالضلال في المنهج والمعتقد، وهو سلوك منحرف يجب الحذر منه والتنبه لأصحابه، حتى لا يفسدوا عقول الأجيال كما أفسدوا عقول مريديهم ومن يعتقدون فيهم أنهم على شيء.

بل أنا هنا أؤكد لمن لا يقبلون كلاما إلا من الأزهر وعلماء الأزهر، أن هذا المسلك غريب شاذ عن مسالك علماء الأزهر الذين كما أشرت، أقدر الناس عرفانا بمقام ابن تيمية وجلال قدره.. وهؤلاء الناس لا يمثلون الأزهر في شيء، حتى ولو كانوا يرتدون عباءته وتعتليهم عمامته.

لقد سبق العشماوي مقولة لمسؤول ديني في مقطع مرئي يقول فيه: (إن ابن تيمية غير معتمد عند الأزاهرة) وأنت لا تجد مثل هذا الكلام يتردد إلا على ألسنة المتعصبين لتياراتهم، ولا

يرون الصواب إلا في أنفسهم فقط، أما المنصفين من أهل العدل والاتزان فيقرون بخلاف ذلك، ويحفظون للأئمة المهديين مكانتهم وقدرهم، ولعلي أذكر هذا المقطع القريب للدكتور أحمد معبد عبد الكريم أستاذ الحديث بجامعة الأزهر والذي كان يشرح فيه كتاباً في علم الحديث، وعن يساره الدكتور أسامة الأزهرى يقرأ له، وأثناء الشرح جاء ذكر ابن تيمية، فقال الدكتور معبد ثناء على ابن تيمية: "إن أهل العلم يقولون عن ابن تيمية أن مسند الإمام أحمد بن حنبل كان على طرف لسانه ، فماذا يكون على بقية لسانه ؟ " والدكتور معبد أشعري العقيدة ولكنه من المعتدلين الذين لم تتسرب إلى نفوسهم روح التطرف المقيت، بل شهد كذلك لأعلام عصره ممن يختلفون معه في المذهب العقدي كالألباني وابن باز.

ثم تأتي شهادة قوية من الشيخ الباقوري في مقطع مرئي بأحد دروسه وهو يقول: "وابن تيمية رجل سلفي صالح لا ينكر فضله أحد، من الذين يحترمون الحق ويؤثرون العدل والإنصاف على الجور والميل والاعتساف"

وتأتي شهادة الدكتور أحمد عمر هاشم وهو الصوفي المعروف، ففي بعض لقاءاته المرئية مدح ابن تيمية مدحا عظيما وأكد أنه ظلم كثيرا وما يقال عنه ليس بالحقيقة فهل يتبين المرجفون؟

أما الإمام محمد أبو زهرة صاحب أعظم مؤلف عن الامام ابن تيمية [ابن تيمية.. حياته وعصره - آراؤه وفكره] فله فيه كما قرأت نظرة مليئة بالإجلال والإنصاف، ترد كل هذه البغضاء المتفشية، والتطرف المقيت، إذ "يرسم في مقدمة كتابه صورة متكاملة لشيخ الإسلام ابن تيمية، وصفاتٍ قلّما تجتمع في عالم، فقال: إمام جليل، شغل عصره بفكره ورأيه ومسلكه، كان مجتهدًا، مجددًا لأمر الدين، أعاده غضًّا طريًّا كما بدأ، قبس من نور أضاء دياجير الظلام، عالم موسوعي، كاتب بارع، عبقري مبدع، خطيب مصقع، باحث محقق، ومجاهد بالسيف والقلم، صاحب عبقرية لافتة، اجتمعت فيه صفات لم تجتمع في أهل زمانه، ملتزم بالكتاب والسنة، وعلى منهج السلف من الصحابة والتابعين، مجتهد اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحد من أهل عصره، آتاه الله لسانًا مبينًا، وقلبًا حكيمًا، وقلمًا عليمًا، نال من أهل عصره بالقول والبرهان، ونالوا منه بالزج في السجن وتأليب السلطان، كان واضح

الإخلاص، محبوبًا عند العامة، شجاعًا في ميدان القتال كما في ميدان العلم والسياسة، درعًا للعامة في البلاء، ينافح عنهم بلسانه وسيفه، ذو شخصية قوية ونفس جذابة وقلب رؤوف وعقل نافذ، تميز بلمعان الحجة، وفصاحة البيان، وسيرة نيّرة، درس العلوم وخرج منها بما أمدّ به الأجيال بعده، قلبه مؤمن متوثب، صاحب فكر مستقل، لم يكن مقلدًا بل مُبدعًا، فقيه عصره، وأبرز أهل الكلام، ومن كبار المفسرين، كتبه مليئة بثمرات عقله ومشاعره الصادقة، له مواقف عظيمة في الدفاع عن الإسلام أمام هجمات النصارى كما تصدى للتتار بسيفه."

هكذا انتهت شهادة إمام من أكبر وأجل علماء الأزهر، والذي إذا حاولنا أن نقيس بجواره كل من لذع ابن تيمية، فلن يكون إلى جوار أبي زهرة إلا نملة هزيلة أمام عملاق يحجب السماء.

وأبو زهرة لم يكن على وفاق مع ابن تيمية في بعض مسائل العقيدة، بل خالفه فيها وكان له رأيا آخر، وليس معنى هذا الاختلاف أنه حط من قدره وأهان منزلته، بل هو الخلاف الذي حفظ معه مكانته العالية التي لم يدانيها فيها أحد من علماء الإسلام، وليتنا من هذا نتعلم ونهتدي ونسير في خلافاتنا ومع من يخالفوننا.

بل تخطى الأمر من مجرد إشادة عالم أزهري في حق ابن تيمية.. تخطى ذلك إلى المناهج التي تدرسها المعاهد الأزهرية، ففي الصف الثالث من المرحلة الثانوية الأزهرية كان كتاب التاريخ الأدبي يتناول العصر المملوكي، وأعطى نماذج للتخفيف في هذا العصر وذكر ابن تيمية نموذجا في أربع صفحات تمدح وتجري الإمام ببالغ الثناء.. فأين هنا من يدعون أن ابن تيمية من أئمة الضلالة وهذا الأزهر معقل الأشعرية ينصف إماما عظيما كابن تيمية متجاوز حدود العصبية التمذهب الباحث على الحقد والتخاصم.

أما الذين يتهمون كل من خالفهم بالضلال والغي فهؤلاء لا يمثلون الأزهر في شيء، وإنما يمثلون مذاهبهم التي أصلوها بالبغض والكراهية والتطرف المنبوذ.

ولعلنا نقول لصاحب هذا المنقول ما قاله صديق لنا: هل ينبغ الفقيه إلا من بعد عقيدة راشدة أيها المفتري.؟!

رحم الله ابنُ دقيق العيد حينما جلس إلى ابنِ تيمية وبعدما سمع منه فقال له: "ما كنتُ أظنُّ أن الله يخلُقُ مثلك" من شدة إبهاره بعبقريته وتبحر علمه

بل رحم الله صاحب الفتح حينما قال فيه: "الشيخ الإمام، العالم الرباني، الحبر البحر، القطب النوراني، إمام الأئمة، بركة الأمة، علامة العلماء، وارث الأنبياء، آخر المجتهدين، أوحد علماء الدين، شيخ الإسلام، حجة الأعلام، قدوة الأنام، قامع المبتدعين، سيف المناظرين، ترجمان القرآن، أعجوبة الزمان، فريد العصر والأوان..."

أئمة الأزهر يُحرجون الغلاة

أئمة الأزهر الكبار يمكن أن تطمئن لهم، وهم خير من يمثلون الأزهر بتوجهه المستقيم المتسامح المتزن، البعيد كل البعد عن الشطح والغلو والانحراف والافراط والتفريط.

شيوخ كبار لهم مكانتهم العلمية التي يتقاصر دونها همم من يخالفونهم أو يعترضونهم أو لا يعجبهم مسارهم فتنة وتعصبًا لمذهب أو تيار.

وهؤلاء الشيوخ رغم تسامحهم واعتدالهم فإنهم يعدون أكبر عقبة وعائق في وجه المتعصبين المتشنجين الهائجين من غلاة المذاهب والتيارات، خاصة غلاة التيار الصوفي الحديث الذي اتسم فريق منه بالغلو والتشدد والقمع وتضليل المخالفين وتفسيقهم وربما إخراجهم من الملة، وقد كتبت فيما سبق عن هذا التيار العنيف المغالي، وأطلقت عليه وصف مداخلة الصوفية، الذين اخترقوا صفوفها بفكر وطريق وأسلوب ما عرفه المتصوفة قديما وحديثا، وقد كانوا أئمة هداية ودعوة ربانية، لا ترى شيئا من السوء والعصبية تبدو أبدا في حديثهم وفعالهم.

وهو السبيل الذي يرفضه علماء الأزهر الكبار رفضا قاطعا، ولا يحبونه ولا يميلون إليه ولا يعترفون بمغالاة أصحابه، وينكرون عليهم ولا يصمتون لهم، ومن ثم يجد أصحاب هذا الغلو أنفسهم في ورطة كبيرة حينما يجدون أن من يرد عليهم فيما افتروه ليس خصومهم من

السلفيين، وإنما من يرد كيدهم وزيفهم أئمة عدول لهم في العلم قدم راسخة لا يمكن أن ينقضوا عراها، أو أن يطلقوا عليهم سيف غلوهم بالتجريح والتنقيص، إنهم لا يقدرون على ذلك، لأن هذا لو حدث فعلا وتجرؤوا على الشيوخ الكبار، فسوف يهيجون عليهم طلبة الأزهر وأتباع هؤلاء الشيوخ، ليجدوا أنفسهم قد خسروا كثيرا مما تعبوا في كسبه سنين طويلة..

ومن عجيب الحدث، أن ترى من هؤلاء الشيوخ الكبار من هو على نهج الصوفية، ولا يعجبه تصرف هؤلاء الصبيان المغالين، ولا عجب في هذا.. فالأمر كما أبنت سلفا بأن هؤلاء الشيوخ يمثلون التصوف المعتدل المستقيم الذي لم يفقد ربانيته وسماحته واتزانه الذي عرف به عبر القرون.

منذ أيام أهاج أحدهم الدنيا على الإمام ابن تيمية واتهمه بالضلال العقدي، وهي قولة باطل وآبدة من الأوابد، نعت بها إمام كبير له في الإسلام قدره العظيمة وبلاءه الحسن وعلمه الوافر وصدقه البليغ، وأئمة الأزهر كما تكلمنا عنهم هم أعرف الناس بقيمة الامام ابن تيمية وأشد الناس تقديرا لعلمه وعقله، ومن ثم حينما حدث هذا الهياج المنكور، خرج الشيخ العالم الجليل محمد أبو موسى وفي شهادة تاريخية يتحاكى بها الزمان، أو في صفحة تاريخية ترويها الأيام صفع بها أهل الغلو من تيار المداخلة المتمصوفين، خرج أبو موسى ومن صحن الأزهر الشريف وأعلنها بكل قوة: أن من يسب ابن تيمية ويكيد له هم الحشاشون وقال " أنا أسمع بعض الحشاشين الذين ينتقدون العلماء وهم لا يحسنون نطق أسمائهم، ابن تيمية الذي طالت عليه ألسنة الحشاشين.. أنا بسمع بعض الحشاشين، لأن هذا زمن غريب لم يمر بأرض الكنانة، ولا بأي أرض إسلامية، زمن كهذا الزمن، ظهرت فيه غرائب إلى آخره، ونرجو الله تعالى أن يسلم البلاد والعباد من هذا الفساد الوبيل"

أبو موسى من كبار علماء الأزهر وعضو بهيئة كبار العلماء، ومؤخرا حصل على جائزة الملك فيصل في خدمة الإسلام، أي أن جهود الرجل جبارة في خدمة دينه، وهو مفخرة من مفاخر الأزهر الشريف، وكل هذه المقدرات لا شك جعلت من انتقدهم في حرج شديد، لقد أتتهم

الضربة القاصمة من عرين الأزهر وقامته الكبرى، فأخذوا يدورون حول أنفسهم مما أصابهم من تيه أذهب عقولهم.

لم يجد من اتهم الإمام ابن تيمية بالضلال سبيلا يرد به على كلام الشيخ أبو موسى إلا حجج فارغة فقال فيما أثر عنه في محاولة لمداراة الأمر والتخفيف من وقع الصدمة : " وَصْفُ بعض علماء الأزهر المعاصرين منتقدي ابن تيمية بالحشاشين ؛ وصف غير لائق، وما كل أحد يُقبل منه من ما قال ؛ لأن في منتقدي ابن تيمية كبار أعلام الأمة ، وفيهم حنابلة من أهل مذهبه، وفيهم من جمع بين مدحه وقدحه!

وأما فرح بعضهم بهذا الوصف؛ فهو كفرح الصبيان بمكايدة بعضهم بعضا، على أنه وقوع فيما يحذرون غيرهم منه، من التجاوز والتطاول عند الخلاف ! وبالله التوفيق."

لكن مهما أول صاحبنا وحاول التخفيف من وقع ما نزل به من الهول، فلن يستطيع، لقد ضرب الشيخ أبو موسى هراءه بمكسحة جارفة فتركه في تخبط مخيف، ونحب أن نقول للمتخبط نحن لم نفرح بما وصفك به الشيخ كفرح الصبيان، ولكننا فرحنا لأن الشيخ ردك إلى الحق إن كنت من المجيبين، فرحنا لأن الشيخ أنصف الحق وجلى الصدق، وأشهر العدل، وأعطى لأعظم أئمة الإسلام حقه في الوقت الذي يحاول بعض الجهلاء غمطه والتقليل منه.

وللقارئ الملاحظ نحب أن نذكره أن هذه الحادثة التي كان بطلها الشيخ أبو موسى، لم تكن الفريدة من نوعها، فمنذ عام تقريبا وحينما قام بعض المتصوفة ينتقد الشيخ ابن عثيمين ويتهمه بتكفير الازاهرة، انتفض عالم كبير من علماء الأزهر وعضو هيئة كبار العلماء وهو الدكتور الراحل محمود توفيق سعد، ورفض هذا الكلام ورد عليه وأعطى لابن عثيمين حقه وشرفه ومكانته، ووفّاه مقامه في خدمة الإسلام والعلم، ومن المثير أن الشيخ الدكتور محمود توفيق سعد من علماء الأزهر المنتسبين للتصوف، ومن مريدي مدرسة الإمام الرائد محمد زكي إبراهيم رائد العشيرة المحمدية، ولكنه التصوف المعتدل المتزن البريء كل البراءة من الغلو والشطح والمدخلية التي طرأت على بعض تياراته الحديثة.. بارك الله في علماء الأزهر الحكماء الذين يجمعون ولا يفرقون، ويرفعون لواء الحق ولا يغالون.

من الذي أحرج الكنيسة؟

ألا إن المهزلة التي ظهرت عليها الكنيسة في القرون الوسطى من حربها للعلم وتبنيها للخرافات وتقديسها للأباطيل، كان الإسلام هو المحرك الخفي لما وضعت نفسها فيه من صورة محرجة، جعلت الدنيا من حولها تنقلب عليها، وتلفظها وتتنكر لها وتتخلى عنها، لتصير اليوم في معزل عن حياة الغربيين.

والمدهش المحير.. أننا الآن نعلم أن الإسلام هو السبب في ذلك حينما بدأ العلم التجريبي يتسرب من الجامعات الإسلامية إلى أوروبا بينما نبصر هؤلاء الجهلة الذين يتصورون أن الإسلام يساوي الكنيسة في دحره للعلم وانتصاره للخرافات وأنه يجب الانقلاب عليه في الشرق تماما كما انقلب الغرب.. كيف يكون التعامل واحدا مع دين دعا للعلم ونشر النور وبصّر عقل الانسان وساهم في تطور الحياة ونهضة الدنيا.

ولله در الرصافي في قوله:

يقولون في الإسلام ظلماً بأنه * * يَصُدّ ذويه عن طريق التقدُّم

فإن كان ذا حقّاً فكيف تقدّمتْ * * أوائلُه في عهدها المتقدِّم

وإن كان ذنبَ المسلم اليومَ جهلُه * * فماذا على الإسلام من جهل مسلم

هل العلم في الإسلام إلاّ فريضةٌ * * وهل أمةٌ سادتْ بغير التعلُّم

لقد أيقظ الإسلامُ للمجد والعلا * * بصائرَ أقوامٍ عن المجد نُوَّم

إنها حقيقة يجب أن يدركها المصورون والواهمون وأصحاب الهوى، أن الإسلام دين يدفع إلى العلم ويحفز عليه ويشجع صفوفه وأنه لم يقف أبدا عقبة في طريقة، أما الدين في الغرب فكان عقبة كأداء في وجه العلم، وليس معنى اشتراكهما في لفظ الدين أن يكون الحكم عليهما واحد.

إن عداء الكنيسة للعلم لم يكن مجرد حدث عارض أو قصة تاريخية، وإنما كان مهزلة بكل المقاييس يجب التوقف عندها بل كانت محنة عنيفة من تلك المحن المجحفة التي مرت بالعالم

وعانى منها البشر مثل الحرب العالمية الأولى والثانية، فقد شُلَّت حركة العلم في أواسط القرن السادس عشر الميلادي ولم يتوقف ذلك إلا عند بداية النهضة العلمية والثورة العلمية الأوربية، والانقلاب على الكنيسة!

وقد يتندرون بتاريخهم اليوم مع العلم، أو يخجلون حينما يذكرون مصير كوبرنيكس عام ١٥٤٣م حينما اكتشف أن الأرض تدور حول نفسها كل ٢٤ ساعة وأن الشمس مركز الكون وليست الأرض فحاكموه واضطهدوه وطلبوا قتله وحاربوا أفكاره وحرقوا كتبه وأبحاثه ومنعوا تدريسها.. ومثله جاليليو حينما قام ليثبت صحة ما ذهب إليه كوبرنيكس فأمر البابا بإحضاره بالقوة رغم شيخوخته وسوء صحته للتحقيق معه وحكم عليه بالسجن في بيته قيد الإقامة الجبرية إلى الموت.!

ولم يقتصر الأمر على فردين فقط، وإنما توسعت الأزمة، وتوهجت المأساة ضد آلاف العلماء، شكلت لهم الكنيسة محاكم تفتيش، حكمت على تسعين ألفًا وثلاثة وعشرين عالمًا بأحكام مختلفة في الفترة ما بين سنة ١٤٨١م إلى سنة ١٤٩٩م، أي في غضون ١٨ سنة، كما أصدرت قرارات تُحرِّم قراءة كتب جيوردا نويرنو، ونيوتن لقوله بقانون الجاذبية، وتأمر بحرق كتبهم، وقد أحرق بالفعل الكاردينال إكيمنيس في غرناطة ٨٠٠٠ كتابًا مخطوطًا لمخالفتها آراء الكنيسة.

ولم تستطع أوروبا أن تتحمل فثارت على الكنيسة وانقلبت عليها، وسرحت رهبانها وطمست كل ما لها من سلطان ونفوذ.! وفي هذا الميدان الفسيح تتسع جرائم الكنيسة، فتاريخها فيه أغبر كئيب، ويكفينا هنا ما ذكرنا على عجالة، لكن المرء حقيقة يتعجب، ويقع في حيرة كبيرة، حينما يظهر ملحد أو كافر أو جاحد بآيات الله، فيهم العلماء بواجبهم نحو دينه وحفظهم له بالتصدي له وحكمهم عليه بالخروج والالحاد فيتصور نفسه بطلا مناضلا مثل جاليليو و كوبرنيكس وهؤلاء الضحايا الكثر الذين قصفتهم الكنيسة وراحت حياتهم فداء لتنوير البشرية.

ألا إنك واهم مخدوع فأنت لم تدع للنور وإنما تدعو لطمس الدين الذي نشر النور وعلم الناس وكان السبب الكبير في نهضة الغرب وتطور الحياة.

إسلامكم قوي

حينما ينظر المسلم حوله، فيرى دينه تتناوشه الضربات من كل مكان ومن كل سفيه، تُظلم الدنيا في وجهه، ويسوَّد الوجود في عينيه، ويعتقد المسكين الضعيف أن دينه ينهزم أمام ضربات المعتدين.. ولكن الحقيقة غير ذلك، وخلاف ذلك، فما أزعج هؤلاء الآثمون إلا قوة دينك وتمكنه وصولته وتجذره في القلوب والمهج والأرواح.

وما يقدمونه من محاولات الكيد والطمس والطعن والتشويه، ما هي إلا حشرجة صدر لذبيح يلفظ أنفاسه ويفارق روحه، بل أعطيك ما هو أقوى من هذا وأدهش.. فأقول لك: لا تبتئس فكلما زاد لغطهم وتشويههم وزورهم، كلما اطمأن قلبك أن دينك يعلو ويستأسد ويستوطن، وتشتد مكنته ومكانته في ربوع النفس والوجدان، فما هذا السعار إلا نتيجة فزع مخيف ضج منه أصحابه، وأظلم الدنيا في مقلهم، وأضج مضاجع نومهم.

منذ عقود وحينما كانت وسائل الإعلام في مصر يسيطر عليها الشيوعيون والعلمانيون الحاقدون المبغضون للإسلام وتراثه وهويته، نشرت الأهرام كتابا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقامت دار الهلال الذي كان يديرها شيوعي حاقد قميء منحل، فنشرت تفسيرًا للقرآن الكريم، بل كانت الصحف في ذلك العهد، تفرد صفحاتها الواسعة لمناقشة القضايا الإسلامية، وبلغت عناية الجمهور بالكتاب الإسلامي عناية فائقة أكثر مما سواه، وكان كل كاتب متغرب منحرف الفكر والفهم، يرى نفسه مضطرا أن يكتب شيئا في الإسلام أو رجاله، فهل يا ترى كانوا يفعلون ذلك حبا فيه أو هياما وعشقا في سواد عيونه؟

أبدا أبدا.. الجمهور المسلم والهوى الإسلامي والوعي الديني للجماهير العريضة، هو من أجبرهم على ذلك، وأرغمهم صاغرين أن يخدموا الإسلام، حتى لا تبور أدواتهم التي يديرونها فتخسر جرائدهم، وتفلس دورهم.

أذكر في الحقبة الماضية، أن مكتبة الأسرة اضطرت لطباعة كتب العلامة الشيخ محمد الغزالي، وبالأخص كتابيه، كنوز من السنة، والاختلاف بين أهل الفقه وأهل الحديث..

فهل تدرك معنى هذا، أن يقوم علماني ليطبع كتب محمد الغزالي؟

إياك أن تظن أنه يؤمن بحرية الفكر والتنوع الثقافي، ولكنه مضطر أن يقبل على اللون الديني حتى لا يقال عنه: إنه أغفل صبغة مصر المسلمة، وبنفس المقياس، احذر أن تظن أن موجة العدوان على الثوابت الدينية التي يحمل وزرها طغمة آثمة من الملحدين والعلمانيين وبقايا الشيوعيين، إجحافا لدين مظلوم مهيض الجناح، وإنما قلت لك: تنفيس عما في صدورهم من فزع مرعب من سطوة الهوية الإسلامية في القلوب، ونمو الوعي الديني في الأفئدة، اطمئنوا فدينكم قوي.

يا دعاة الفتنة كفاكم فتنة!

تحاول الامة اليوم ان تنتصر على هزائمها ..ويحاول أبطالها أن يقاوموا الطغاة الذين يكبلون مستقبلها ويحيلون بينها وبين قيادة الدين لزمامها.. لقد أصبح هؤلاء الطغاة صورة وبديلا عن المستعمر القديم، وصاروا اليوم أداته التي تنوب عنه في دحر الاسلام وصحوته ودعاته..! إنهم يستخدمون كل امكاناتهم، ويسخرون كل قدراتهم في إطفاء هذا النور والقضاء على جنوده حتى تعيش الامة كلها في ظلام وأوحال حينما تتخلى عن طريق عزها وسبيل مجدها الذي أنبأها به (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه بقوله : (نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله)

ولعل البلاد لا يكون في هؤلاء الطغاة الجبارين الذين يعبدون مصالحهم ويقدسون ذواتهم التي لا تشبع من مال أو تقنع من سحت ..وإنما البلاء الحقيقي يأتي من هؤلاء الجهلاء المأفونين الذين دخلوا حلبة الصراع فأعاقوا تقدم الاسلام وانتصاره حينما جعلوا من جهلهم وقودا لغلبة الباطل ودعم ظهوره ..! ففي الوقت الذي تستعر فيه الملحمة بين الحق

وأعدائه يخرج الجهلاء الذين لا ينقضي عتههم ولا ينتهي خرفهم، فيزجون بأحاديث الفتن ويصوروا المعركة بين الحق والباطل بأنها فتنة يجب هجرها والعزلة عنها والهروب من الدنيا كلها حتى لا يصيب الناس منها شيئاً..

وهكذا وبكل سهولة يغررون بالناس ويدعونهم للهروب والانسحاب والخذلان ، حتى تخلوا الساحة للمردة والشياطين وأعداء الدين والحرية ..لأن أهل الحق قبعوا في بيوتهم وأغلقوا عليهم أبوابهم خوفا من الفتنة واتقاء لشرورها.. ورحم الله شيخنا الغزالي حينما قال: (لو سرت جرثومة هذا المرض إلى صلاح الدين الأيوبي ما فكر في استنقاذ بيت المقدس من الصليبيين القدامى! ولو سرت جرثومة هذا المرض الى سيف الدين قطز ما نهض الى دحر التتار في «عين جالوت!». ولو سرت جرثومة هذا المرض إلى زعماء الفكر الإسلامي في عصرنا الحاضر، ابتداء من جمال الدين الافغاني إلى الشهداء والأحياء من حملة اللواء السامق، ما فكروا أن يخطوا حرفا او يكتبوا سطراً!)

ان الفتنة المقصودة هي التي تنشب وأحكام الله ظاهرة وحرماته مصانه والحاكم مسلم والجهاد منصوب ، فيحدث صراع او خلاف في وجهات النظر يعقبه قتال وشقاق كما حدث بين الرعيل الاول في الفتنة الكبرى ..ولا يجوز تصوير هذا الامر مع ما يحدث اليوم فالفرق كبير والبون شاسع وقد حاول الغزالي رحمه الله أن يصور الامر ويوضح المقصود فقال: (والفتن التي لا شك في وقوعها والتي طال تحذير الإسلام منها فتنة التهارش على الحكم والتقاتل على الإمارة ومحاولة الاستيلاء على السلطة بأي ثمن، وما استتبعه ذلك من إهدار للحقوق والحدود، وعدوان على الأموال والأعراض)

ما أتعسهم وهم يغترون بعقولهم القاصرة ويجشمونها تفسير النصوص الشريفة دون مرشد أو معلم أو هداية فاهم بصير ..إنها الاهواء في أوهى صورها حينما تخدعها الاوهام وتظن في نفسها الظنون بأنها قادرة وواعية وفاهمة ربما أكثر من الفاهمين وأشد من العالمين والله تعالى يندد بأمثال هؤلاء ويرشد المؤمنين به بقوله: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)

ولكن حاشا وكلا أن يكون هؤلاء ممن لا يعلمون ، إن أمثالهم يتصورون أنهم يعلمون كل شيء ولا تخفى عليهم خافية، وما أحاديث الفتن والدعوة إلى العزلة و الهروب .. بالشيء العسير الذي يخفى عليهم فهمه أو يعييهم إدراكه

حدثني أحدهم يوما بقوله : إن المسلمين مختلفون ولا يعرف أحد ماهية الحق من الباطل والجميع في دوامة ..فقلت له يا أخي ربما خفي عليك الحق أنت وحدك لقصور عقلك فلا تعمم الخفاء على الجميع ، هناك نصوص وشواهد تحكم حياتنا وأحداثنا وتفرق لنا بين الحق والباطل وتهدينا إلى فهم الصواب من الخطأ ..وما علينا حيالها إلا أن نحكم عقولنا بعيدا عن الاهواء ليظهر لنا الحق جليا دون التباس ..فقال لي أرى أنا فتنة ويجب أن نطبق فيها ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث الفتن والعزلة فقلت له : إن أي محاولة للخلط بين الفتنة وبين الصراع بين الحق والباطل ما هي الا صورة خسيسة تشبه تماما جريرة التولي يوم الزحف، كما أنها الفتنة ذاتها حينما نخذل الحق ليعتلي عليه الزيف والضلال ..ما عليك فقط إلا أن تتبصر طريق الحق وتصطف بين جنوده لتقوم بدورك في نصرته بدلا من هذا الهروب المنكود ولتراجع في امور الدين علماءه ودعاته الصادقين لتقف على معانيه الصائبة دون التباس أو تشقيق..

على الغرب أن يجدد خطابه

قام العالم كله عن بكرة أبيه، بكافة مذاهبه ومعتقداته وأفكاره، يدين حادثة الطالب المسلم الذي قتل معلمه الفرنسي حينما تطاول على مقام النبوة الشريف.

حتى الأزهر الشريف بجلالة قدره، أدان واستنكر، في بيان باهت ضعيف، لم ينل المتطاول بشئ من النكران، كما نال القاتل بالاستنكار المنهمر.

والحق أننا أمام حالة تستدعي نظرا أعمق بكثير من هذا الشجب، وهذه الإدانة، وهذا الاستنكار، خاصة وأنها حدثت في بلاد تؤمن كما تدعي بالحرية التي قاربت حد الانفلات

والتطرف.. نعم حد الانفلات والتطرف.. وهي اللفتة الدقيقة التي كان منوطا بالجميع أن يلوكوها في عقولهم، ويدينونها ابتداء، قبل إدانة الدماء، لأن مايؤدي للدم، يأخذ نفس الحرمة التي يأخذها الدم، لأنها من أسبابه ودواعيه، خاصة وان هذا المعلم الفرنسي، يخيل إلي أنه بهذه الاساءة كان كالمقدم على الانتحار، فلا زالت حادثة شارل إبدو ماثلة في الأذهان والعقول، ودماء ضحاياها ساخنة تئن منها أرض فرنسا.

إننا ندين القتل ولا نقبل أبدا بالعنف، ونؤيد الدعوة بالرفق واللين والموعظة الحسنة، لكن.. أن تصل الاهانة إلى قدس الأقداس، وإلى أعز ما يملك المرء في حياته، إلى عقيدته ودينه، فإن قضية اللوم هنا يجب أن تنتظر طويلا، حتى يتم توجيهها للأسباب والدواعي التي أنتجت هذا المصاب المؤلم، وقبل أن تصب ثقلها كله في كفة واحدة.

لكن قطاعات عريضة من المعادين للإسلام - هاصت ولاصت- ، وصفقت فرحا بما حدث، لأنه فرصة جديدة يطبقون بها على الاسلام، فيلوثون سمعته، ويشوهون صورته.

لكنني أمام فرحهم أدرك بقوة أن الإساءة التي حدثت ونال القتيل بها من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ستكون في الزمن القادم، في الغرب عموما وفرنسا خصوصا، فلتا عاليا، وشفا جرف هار، من يقترب منه يحكم على نفسه بالهلاك، ويعرض نفسه للضياع.

كما أن ما حدث بمثابة دعوة جديدة لهذه الدول، وللفكر العلماني أن يعيد ترتيب نفسه، فيجدد فهمه وأسلوبه وطريقته، ويعود لأصالة العلمانية التي تقوم دعائمها على الحرية المشوبة بالاحترام.

أكتب هذا الكلام في الوقت الذي تضج فيه قنوات التلفاز بوقفات عارمة لجموع حاشدة في قلب العاصمة الفرنسية، وقفات لليمين وأخرى للديمقراطيين، احتجاجا على قتل الرجل، وكم كان بودي لو وقفت فيهم خطيبا هاتفا في جموعهم: أن احترموا علمانيتكم، وعبروا عن أنفسكم بما شئتم، وأظهروا ما في قرائح عقولكم بأي طريقة تريدون، شريطة أن يكون الأدب سيد الموقف، والاحترام عنوان التعبير.

هكذا دون تجريح او إساءة، أو أي محاولة لاستفزاز مشاعر الآخرين.

إن الغرب اليوم في حاجة إلى أن يتأدب ويحترم نفسه، وهذا الاحترام وهذا الأدب هو مناط التجديد الذي ندعوه إليه.. إنهم يدعوننا أن نجدد خطاب ديننا، نعم لا ضير في ذلك، حتى نلقي عن كاهل الإسلام وزر المتطرفين والارهابيين.

لكننا نصر كذلك أن ندعوهم ليجددوا خطابهم، ويجددوا نظرتهم، ويجددوا حوارهم ويجددوا من رؤيتهم التي لا تحترم عقائد الآخرين وتزدري أفكارهم.

أحيانا يندفع المرء للردود القوية، حتى يشفي غليله، خاصة إذا كان يشعر بضعف وغبن وقلة حيلة، وحتى لا يظن الجميع أنه صار لقمة سائغة في فم كل حاقد وباغ.

شيء مهين أن نظهر في سمت الضعفاء، وصورة المهازيل ونحن نقيم المواقف والأحداث، وهي الصورة التي تمثلها بيان الأزهر الشريف حينما صب جام غضبه على القاتل، وأغفل دوافع الجريمة وأسباب العدوان، التي لو تفشت في المجتمع لصارت فتنة عظيمة، تذهب ببنائه وأمنه، كم كنت أتمنى وأنا أشاهد هذه الحشود المعترضة على القتل، أن أرى أخرى تدين الإساءة للمعتقدات، وتشين الحرية التي تتزيا بقلة الأدب والانحطاط.

ربما يحاول بعض المرضى والمغرضين أن يقتبسوا من مقالي ما يوهم أنني أدعوا للقتل والترويع ، وأحرض على الارهاب والتطرف، وذلك كذب وإفك وافتراء، فإنني من هنا أجدد تأكيدي بأنني ألوم القاتل وأنني ضد إراقة الدماء، وأؤمن بالحوار والرفق في الخطاب، لكنني أؤمن ابتداء بعداوة الغرب لديننا وأدعوه وأحزابه أن يجدد خطابه.

على الغرب اليوم أن يحترم نفسه، ويجدد خطابه، ويؤصل لمعالم جديدة من حرية التعبير، تقوم على الاحترام المتبادل، والأدب مع الغير، وتوقير عقائد الاخرين، وإلا صارت نار عظيمة لا قبل للجميع بلهيبها.. بل صار عدوان يفني أمن الأوطان وحياة الانسان، وصراع يغرق فيه الجميع، ويغمر الأرض بدماء تفزع الشعوب.

اشربوا شاي المجوس

ما يمنع أن تجالس من هو على غير ملتك وعلى خلاف دينك؟

ومن قال بأن المسلم منعزل أو أنه مأمور أن يتعامل على أنه جنس آخر غير جنس البشر؟

إن الإسلام ورسوله جاءا رحمة للعالمين، وإذا لم يكن هناك اختلاط بالناس، كيف إذن تكون هذه الرحمة؟ وكيف يراها أو يشعر بها الناس؟! إن الدين أبدًا لم يكن عدو الإلف والود، لم يكن عدو الانسان، لم يكن ناهيا عن المعروف والسماحة والبر والمعروف لغير المسلمين ومن يتصور ذلك فقد جهل روح الإسلام وغايته الكبرى التي جاءت لنفع الإنسانية.!

(لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) سورة الممتحنة

أعرف بعض المحلات التي يمتلكها مسيحيون، وينكر علينا البعض أننا نتعامل معهم ونبيعهم ونشتري منهم، والمصيبة أنهم ذمتهم أرقى من كثير من المسلمين، ولكن بعضا من إخواننا يتهيبون التعامل معهم بحجة العداء الكامن للمسلمين وأنهم يخططون للسيطرة على الاقتصاد والسوق وكثير من المهن والتجارات، لكن الحل الأمثل لا يمكن أبدا أن يكون في تجنب التعامل معهم، ولكن الحل الواضح في يقظة كبرى تجتاح نفوس المسلمين فتوقظهم من جهلهم وتأخرهم وسباتهم وضياعهم فيجتهدوا ويعملوا ويجدوا وينجحوا ويتفوقوا ويسيطروا.

أما أن نظل على هذا التحريض والمنع واعتقادنا بأن هذا الحجب يمنع سيطرة الغير على منافع الامة فهو وهم كبير.

إن بعض المسلمين يروق له أن يخلق جوا من العداء دون مبرر، ولو أنه أنصف لاحتضن الجميع بأخلاقه ونظر إلى نفسه فلم يهملها وأيقظ فيها عناصر القوة، التي تزيده من بريقه وقوته ومنعته، مهما حاك من صنوف المؤامرات.!

الشيخ عبد الرشيد إبراهيم في رحلاته الثرية سجل مواقفا تستحق أن نقف عندها ونتأملها وبين أن هذا الجهل أو هذا الانغلاق ضارب في أمتنا منذ عقود، مع أن الاثار الواردة عن كثير من الائمة تحكي كيف أسلم أهل الكتاب ومن هم على غير ملتنا من الوثنيين والمجوس حينما تعاملوا معهم ورأوا جمال أخلاقهم.

شرب الشيخ شايًا عند رجل مجوسي فأنكر عليه بعض طلبة العلم، وقال له كيف شربت شاي المجوس؟! إنهم مشركون، قال الشيخ: (إنها مصيبة وقعت على رأسي مثل الصاعقة، إنهم يستدلون بقوله تعالى:" إنما المشركون نجس" في رفض أي شيء يقدمه المجوس، فلا يأكلون معهم ولا يشربون لاحظوا في الدنيا هذا النوع من المسلمين! جهل شديد من جهة وصلابة شديدة فيما يعتقدون من جهة أخرى!

ومرة كان الشيخ مدعوا عند رجل مجوسي صيني يبدو أنه من رجالات الدولة وله شهرته ومقامه، ونشرت الصحف خبر هذه المأدبة وحضور الشيخ لها، قال الشيخ: (فقام مسلمو الصين بتوجيه نقد مباشر لي لقبولي ضيافة رجل مجوسي وأكلي من طعامه النجس! والحقيقة أن توغورت صاحب الوليمة قد احتاط لمثل هذا النقد، فدعا أشهر الطباخين المسلين في بكين لإعداد طعام لي ، وقد أنقذتني الصحف نفسها من هذا النقد والتجريح عندنا نشرت بعد يومين خبر استقدام هذا الطباخ المسلم فلولا نشر هذا الخبر لكنت ضحية هذه الضجة التي لا أصل لها.!

كنت مرة في طريقي إلى بكين فأردت شراء بيض، فأسرع إلى صيني مسلم لا أعرفه وقال لي: لا يجوز لك أن تأخذ بيضا من كافر، وأخذ النقود من يدي، وجاء من المدينة ببيض من المسلمين، كنت أفكر وأقول: أيعقل هذا النوع من التعصب؟ ولكنني بعد أن تأكدت من أحوال المجوس قلت: إن المسلمين على حق، وكدت أصرخ من أعماق قلبي: عاش التعصب، لأن العناد والتعصب في المجوس بلغ مبلغا بحيث إذا مروا بظل مسلم بادروا إلى الاغتسال!"

ولكن حتى لو كان من يعادوننا بهذا الغلو فلا يجب أن نقابلهم بمثله ، بل يجب أن نقابلهم بما يشعرهم بحرج غلوهم.!

عانقوا الملحدين !

حينما أتحدث عن علماني أو ملحد أو شيوعي، وأستشهد له بموقف أخلاقي، فإن ذلك لا يعد عيبًا أو حرامًا، وقد جاء الإسلام يشيد ببعض ما كان في الجاهلية من مكارم الأخلاق رغم كونها جاهلية، بل كان من المشركين من يرى فيهم النبي الكريم أهل مروءة ويتوسم فيهم الخير والنبل والنجدة والشجاعة، لقد مات عبد الله بن جدعان كافرًا وما ذمه النبي صلى الله عليه وسلم، ولا منع أحدا أن يتكلم عن بره وخيره وحبه للإحسان! وهناك المطعم بن عدي وقد أجار النبي صلى الله عليه وسلم حينما عاد من الطائف، وكان أحد الستة الذين نقضوا صحيفة القطيعة لبني هاشم.

إن الإسلام دين عظيم وكبير ونظرته أعمق وأوسع وأشمل وأعقل وأحوط وأكبر بكثير من نظرة بعض من ينتسبون إليه حينما يشوبها الضيق والجهل وفقد التمييز.

إن ديننا دين أخلاق، يدعو للأخلاق ويرحب بالأخلاق ويمتدح أهلها، ويسع الناس ويقبل الآخرين، ويستوعب أعداءه قبل أحبابه، وهذه الروح الكريمة العظيمة الراقية السامية، كانت من أعظم السبل التي حببت فيه القلوب وساقتها للإقبال عليه وانتهاج ملته.

حدثني أحد الاصدقاء مرة: أنه لو علم أن كاتبًا هاجم جماعته ووقف منها موقفًا معاديًا، فإنه لا يقبله، ولا يحب القراءة له ويعِفُ عن شراء كتبه أو الاقتراب منها، ومن ثم يهيل التراب كلية على جهوده، حتى ولو كانت له نظراته الإصلاحية والفكرية، بل حتى ولو كتب عن الاسلام نفسه ينصره ويوضح حقيقته.

وهو لا شك أفق ضيق ونظرة ضئيلة، لا يمكن إلا أن تمثل دعوة فاشلة، ونماذج يقودون مسيرتها إلى الصدام والشقاق والانعزال.

إن الذين يفهمون معنى الدعوة بدقة، ويعون روح الإسلام في تعامله مع الآخر، يسيرون على هدى وبصيرة ويجلبون لدينهم نصرًا وحبا وتمكينا في القلوب والنفوس.. إن المعايشة

والمواطنة وقبول بعضنا بعضا تحت سماء واحدة، أمر يقبله الدين ولا ينكره، لأن ديننا دين الإنسانية في المقام الأول، وكم هناك من أغرار يغيب عنهم أن دينهم دين الإنسانية، فهم يغفلون هذا الجانب ويهيلون التراب عليه، ولا يدركون شيئا من فقهه وبروز دينهم في ميدانه.

لا أنكر أبدا أن هناك أشرار يبغضون الإسلام ويكيدون له، ويعملون بكل جهدهم في القضاء على وجود فكرته، واجتثاث جذوره، وهؤلاء لا رحمة معهم، ولا هوادة في محو زورهم.. لكن أبصر هناك من يختلفون معنا في أفكارهم وعقائدهم، ولا يقابلوننا بالهجوم والعداء والتآمر الخفي لاستئصال شأفتنا، فهؤلاء من نعنيهم ونقصدهم ونتعامل معهم، ونُقبل عليهم ونأخذ خيرهم وندع شرهم.. ربما يكتب أحدهم ما يخالف أفكارنا فلا يسوقنا هذا أن نضعه في صف الأعداء ونكيد له، ونحاول تشويه صورته الفكرية والشخصية، وكل ما يمت له بصله لأنه خالفنا وخالف عقيدتنا، وكم كان حسن البنا رائعا وهو ينتقد طه حسين في حديث الثلاثاء، حول كتابه (مستقبل الثقافة في مصر)، إنه لم يخرج أبدا عن حدود الأدب في النقد والتوجيه، وظل محافظا على لفظة.. الدكتور طه يقول الدكتور طه يقرر الدكتور طه يشير.! كثيرون من شبابنا المتدين يحتاج تجديد الرؤية، وتحديث النظرة وفق هدي النبوة المباركة، وروح الإسلام العظيم، الذي أعلى شأن الإنسانية واستوعب الآخرين على اختلاف مللهم ونِحلهم.

أعجبني مؤخرًا ما قرأته عن الإمام محمد رشيد رضا في معاملته للنصارى ومن هم على غير ملته حتى الملحدين منهم، لقد كانت له مع الجميع معاملة زاهية راقية، يبرز جهودهم ويثني على أدوارهم الإصلاحية رغم اختلافه معهم، فهو في وطن ضائع ممزق مستعمر ينشد له العدالة والنهضة والخلاص من محتليه.

لقد كان رحمه الله يقرأ للمسلمين وغير المسلمين، ويصادق المسلمين وغير المسلمين، ويجادل ويحاور هؤلاء وهؤلاء، لقد رثى (جورجي زيدان) حينما مات بخمس صفحات في المنار، وذكر أن الأمة العربية فقدت ركنا من أركان نهضتها الحديثة في العلم والأدب، كتب هذا

رغم اختلافه معه في بعض الآراء والاتجاهات، وحينما مات البابا (لاون) الثالث عشر رثاه في المنار ووصفه بأنه أعقل رجال أوروبا وأعلاهم كعبًا في السياسة، حتى الدكتور (شبلي شميل) سنة ١٩١٧م رثاه في ثمان صفحات رغم كونه ملحدًا، لأنه في نظره من المصلحين الاجتماعيين المخلصين.

لقد كان رشيد يريد التواؤم وينشد التعايش، ويدعو للمودة والاحترام، وتقدير القيم والعلاقات الإنسانية، ولكن بالطبع ليس على حساب الدين والعقيدة، التي إن استنفرت ساحتها للحرب، كان أول من حمل اللواء، وامتشق الحسام، وشحذ الحراب والسهام.. ما أحوجنا لفهم عميق، وتربية راشدة، ووعي ثاقب، نزيد به من رصيد ديننا ومكانته في القلوب والعقول.

الأنكال على مدعي الحال

تأتي نظرية الحال الخبيثة التي يراد بها هدم الدين والتي تعد من أبشع ما اخترع جاهلوا البشر، لمحاربة التدين والالتزام، وإشاعة الفسق والفجور..

فما أن تحكم على ضال فاسق ملحد لعين بأنه عدو الله، حتى تهيج عليك الدنيا منكرة لعنك إياه، متهمة إياك بأنك تنصب نفسك إلها تدخل من تشاء الجنة ومن تشاء النار، ثم يقولون لك: وما أدراك بحاله لعل الله تعالى قد تاب عليه.! ولكن ماذا عن الشريعة التي توجب على المسلم أن يوالي من والى الله ويعادي من عادى الله؟ كيف تقوم الشريعة ونحن نطفئ بنظرية الحال لهيب الغيرة على الدين والقيومية على الشريعة في النفوس.. حتى إذا ما تكلم المعترض فيباغتونه بنظرية الحال.

لعل هذا الفاسق الفاجر ختمت له خاتمة حسنة، نعم.. وليس ذلك بمستحيل.. لكن لعننا له واجب شرعا.. حتى لا يحذو الناس حذوه.. أو يبرروا إفكه أو يصابوا بالتسويف في توبتهم ويؤجلوا أوبتهم لربهم من ضلال يمارسونه فتنة به وبحاله.. ليكن بينه وبين ربه تعالى ما

يكون.. المهم أن يكون حكم الشريعة ظاهر عليه وحاكم على أعماله.. أما عن مفاجأتنا يوم القيامة بأنه كان من الناصحين، ونحن غافلين، فإن الله تعالى لن يتهمنا بأننا ظلمناه وإنما سيمدحنا ويثيبنا لأننا انتصرنا لشرعه وحكمه.. كما أن هذا المظلوم نفسه لن يقوم ليطالبنا بتعويض أمام الله تعالى لأننا معذورون في مصيبته التي كان عليها من صد عن الحق والاستقامة.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (مُرَّ بجنازة فأُثْنِيَ عليها خيرا، فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت، ومُرَّ بجنازة فأثني عليها شرّاً، فقال نبيّ الله صلى الله عليه وسلم: وجبت وجبت وجبت، قال عمر: فدى لك أبي وأمّي، مُرّ بجنازة فأثني عليها خير فقلتَ: وجبت وجبت وجبت، ومرّ بجنازة فأثني عليها شرّ فقلت: وجبت وجبت وجبت؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنّة، ومن أثنيتم عليه شرّاً وجبت له النّار، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض، أنتم شهداء الله في الأرض) رواه البخاري.

وهكذا يا قوم.. كان الصحابة وأمام النبي الكريم ينطقون بالحكم على الناس ويصورون مصيرهم من حالهم في الدنيا، ولم يغضب النبي صلى الله عليه وسلم منهم أو يقول لهم: هل نصبتم أنفسكم آلهة تدخلون من تشاؤون الجنة ومن تشاؤون النار؟!

لم يقل شيء من هذا لأن دين الله لا شاهد عليه إلا الحال والواقع، ولو هدمنا هذا الحال فهو نوع من التمييع الذي يقبل به قوم يريدون للحق أن تنتصب له راية ويقوم له لواء.

نحن لا نكره أحدا أبدا، ولا نسمح للبغض أن يسيطر على قلوبنا ليكون غاية نهفو لها فنعامل به كل الناس فنرجو لهم الهلاك والشرور.. أبدا أبدا ليست هذه نفسية المسلم، وإنما نحب كل الناس حتى المذنبين والفاسقين نحبهم ونرجو صلاحهم ونجاتهم ورضى الله تعالى عليهم.. ولا يمكن للقلب الذي يغمره الحب أن يكون لعانا سخاطا شتاما يملأ حياة الناس بهذا الفزع المروع.. وإنما الغاية أن ينذر الناس في رفق ولين وفي نفس الوقت لا يمنعه

لينه أن يتغافل عن الحق أو يتراجع عنه فيعلن البراءة من كل زور يراه في حياتهم. فهي لين في غير ضعف وشدة في غير عنف.

خدعة التنوير

نعلم أن هناك من يكفرون.. لكن هناك فعلا من كَفر!

نعلم أن هناك متشددون.. لكن هناك فعلا من استهتر وفرط.

نعلم أن هناك متنطعون مغالون.. لكن هناك فعلا من ألحد وانحرف.

هناك بعض العقول الضعيفة أمام ما تراه من النوع الأول من حزب المتنطعين المتشددين المكفرين، تنسى جرائم النوع الثاني من أحزاب الملحدين والمفرطين المنحلين.

ويدفعهم الغلو في حرب المتشددين، أن يظنوا أن كل من يتهمه هؤلاء ويطعنون فيه، برئ مظلوم مشوش عليه، وأنه أنقى منهم، وأنهم أعياهم فهمه، ولم يغوصوا في أعماق فكره، لجهالتهم وضيق أفقهم وظلاميتهم، ومن هنا وجب الدفاع عنه، واليقين بأنه برئ وأنهم ظالمون مكفرون.. حتى صار عرفا يجري على ألسنة الكثيرين، وتظنه عقول العديد من المهمشين.. فإذا ما قلنا إن العلماء يطعنون في عقيدة رجل من رجال الفكر والأدب، قوبل قولنا باستهتار واستخفاف وعدم مبالاة، و ردوا علينا بقولهم: ما أكثر ما كفر هؤلاء الظلاميون كثيرا من الأنقياء، الذين لم يستطيعوا فهم فلسفتهم وعلمهم، لأنهم ضيقوا الأفق عاشقون للظاهر، سطحيون حرفيون في التصور.! كلما سمعوا كلمة كفر بحق أو بباطل، كان هذا ردهم، وهذا انطباعهم! وكأنه صار عقيدة راسخة.. وهكذا نجا كثير من الملحدين والفجرة والمنحلين فكريا وعقديا من حكم العلماء، وتقويم الدين، حينما انحاز لهم ضحايا المتشددين.!

فإذا حدثنا الناس عن رجل كابن سينا وقلنا إنه باطني من فرق الحشاشين والقرامطة فاسدي العقيدة، لم يستمع إلينا أحد، وجرى في فهم كثير من العقول، أنه ضحية هؤلاء الناس الذين يكفرون الأعلام والكبار ظلما وبهتانا، وقالوا: كثيرا ما اتهم الأعلام!

وهنا يكاد المرء يمزق شعر رأسه، من هذا الخلط المريع، فرجل كابن سينا على قدر عظمته العلمية، في الطب والفلسفة، لم ينج من فساد المعتقد، وهو أمر ثابت في تراثه وكتبه، وثبت كذلك أنه كان باطنيا قرمطيًا، فعلام الدفاع عنه بجهل، والظن بأن هناك من شوه صورته كما شوهت صورة كثير من التنويريين النجباء على يد عشاق التكفير.

الأمة كلها أجمعت على باطنية الرجل، وليس هناك من جزم بشيء غير هذه التهم والأحكام التي ثبتت ضده، فعلام هذا الانحياز الاعمى وكأنه لا يوجد فعلا من فسدت عقيدته.

قبح الله يوسف شاهين في فيلم المصير، فهو الذي أنتج وأنشأ هذه النزعة الغريبة التي آمن بها قطاعات كبيرة من الناسي بسبب فيلم (المصير) الذي جسد حياة مفكر تنويري كما أراد هو أن يصور ذلك، وبين أن الذين يقومون بتكفيره، جهلة إرهابيون مخربون ظلاميون.. ليوحي للمشاهد، أن هذه هي حقيقة كل من يقال له: أنت كافر وأنت ملحد وأنت مستهتر ومنحل مفرط.. بينما هو في حقيقته مفكر ومستنير ومجدد وأنه المشكلة فيهم وحدهم لأنهم ضد النور والتحرر والعقل والفكر والتجديد.. نفس ما يحدث مع يوسف زيدان اليوم.. يظن بعض الجهلاء نفس الظن ويدافعون عن الرجل بنفس المنطق ونفس النظرة ويظنون أن الرجل يجدد بينما هو يفرط، ويظنونه، يجتهد بينما هو يلحد، يظنونه يبني بينما هو يهدم، فإذا ما نوهنا بإلحاده وإسفافه وعدوانه على أصول الدين، ظهرت لنا عقبة ومأساة فيلم المصير ليوسف شاهين، لتحول بيننا وبين توعية الناس بحقيقة الخلط الذي يأتي به الرجل، وتظل المأساة مستمرة، ويظل الاتهام بالظلامية قائم.

هناك فئام من الناس يعتقدون أن الرجل مفكر كبير ومجدد الاسلام في القرن الحادي والعشرين، إي والله هكذا يظنون!!!! وأنه فيلسوف في زمن الجهالة الفكرية، وبطل تنويري يوقظ وعي الأمة الخاملة، إي والله هكذا يظنون! وإنني في هذا المقال مؤمن ومشيد

بإنجازات حضارتنا العربية والتي كان منها ابن سينا، ولكن هذا الإكبار لا يمنع أبدا أن يكون لي منها موقف عقدي، نابع من فهم الكتاب والسنة، كما أنني لا أركز على شخص ابن سينا بعينه أو غيره بعينه، بقدر ما أركز على فكرة البراءة المطلقة للملحدين واتهام خصومهم بأنهم ظلاميين.. فهل وعينا هذا النقطة لننجوا من شركها وتلبيسها.؟!

محنة الولاء والبراء

كنت منذ فترة قد انتقدت موجة الرثاء والتعاطف الجماهيرية المتأججة العارمة التي صاحبت رحيل أحد الفنانين بشكل مبالغ فيه، وتساءلت يومها متعجبا: إن الفقراء والمحتاجين والمساكين والمطحونين في بلادنا يموتون كل يوم ميتة تئن لها القلوب وتنخلع لها العقول، وتجزع لها النفس، ومع هذا لم نجد من يتعاطف معهم أو يبكي لهم أو يرثي رحيلهم.

انتقد كثيرون موقفي واستاؤوا من جفوتي تجاه رحيل محبوبهم الفتان، الذي خلع قلوبهم، وأبكى أعنيهم وسال من أجله دمعهم المدرار، والحق أن موقفي لم يكن جفوة أو قسوة كما فسرها بعضهم، وإنما كان قمة التعاطف مع أناس لم يجدوا العدالة حتى في الموت بعدما فقدوها في الحياة.!

لكنني وقفت أمام القراء موقف المدهوش، حينما بادرني أحدهم بقوله: يا أخي إن حب الناس الغفير ما هو إلا علامة حب الله فقد قال صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريل، فقال: إني أحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء، فيقول: "إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل، فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه. فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء: إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، ثم توضع له البغضاء في الأرض"

وهنا وعلى الفور تذكرت ذلك الزنديق الدجال المخرف المحتال الذي كان يبهر الناس حتى افتتنوا بما يأتي من خوارق يساعده فيها اتصاله بالجان ومعرفته بالسحر، ولما قبض عليه

وسيق إلى الجلاد لضرب رقبته، لم يستطع سيف الجلاد أن ينفذ إلى جسده، فكان كلما ضرب يجد السيف ما يصده عن جسده، وكأنه يضرب في جدار من الحجارة، أو يصطدم بعمود من الحديد الصلب، كل هذا والناس واقفون يشاهدون تزداد به فتنتهم ويعلوا تأييدا له صياحهم.. حتى أتى أحد الشيوخ وتلى بعض آي القرآن فانصرفت الشياطين عن وليها، فنفذ السيف في جسده الآثم بعد أن زالت عنه الموانع والحواجب.!

بل تذكرت كلك وقفة هذا العالم الضال وهو يمدح أحد الطغاة السفاحين ويقول لأول مرة في حياتي أعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض.." حينما رأيت حب الناس لشخصكم ومقامكم الرفيع.. لقد أخذت أفكر كثيرًا وأقول هل يعد حب الجماهير فعلا شفيعا ودليلا على حب الله تعالى؟ إنني أعلم من أهل الفن من مات ولم يصلي لله تعالى ركعة، ولم يعرف طريق المساجد، وقضى كل حياته بين السكر والعربدة والخنا والفجور، وحينما مات فجع عليه الناس وانتحبوا وولولوا ومنهم من انتحر حزنا على رحيل معشوقه.

فهل يكون حب الناس له دليلا على حب الله تعالى الذي كان يعصيه ويخالف أمره.؟!

أعرف كذلك في تاريخنا القديم طاغية حارب دين الله ووأد دعوته وحارب أتباعه، ولما مات بكته الأمة واتشحت عليه السواد، بل كاد الجنين في بطن أمه أن يبكي عليه.! ومازالوا إلى اليوم يرفعون ذكر ويتغنون بعنترياته الفارغة وحماقاته الرعناء، فهل يعد هذا الحب الغامر من أفئدة الناس دليلا على حب الله تعالى؟! إن الاستعمار وأذنابه قد عملوا بدأب في محو التزامنا بديننا وفهمنا لمبادئه، وسلخنا عن هويتنا وتجريدنا من ثقافتنا، حتى صرنا مسخا تائهين لا نفرق بين الحق والباطل، ونخلط الغث بالسمين، ولا نعرف التمييز بين الحب الإلهي النابع من الطاعة والعبودية الكاملة لله، وبين الحب النابع من الهوى والمزاج والشيطان.. إن انحراف الجماهير، وجهلها بالولاء والبراء، وبعدها عن مناج الاتباع، ونشأة أفرادها من بيئة لا تعرف الإسلام قولا وعملا، يجعل في جماجمها عقولا مضطربة التفكير، ضالة الأهواء، تجعل من الخلط أسلوب حياة.

وهو الذي تجلى اليوم أكثر ما تجلى في قضية الحب الإلهي ووضعها في غير موضعها ووصفها في غير أهلها.. قد أحب فلانا ويحبه كل الناس، لكن لماذا أحببناه؟

هل لأن شكله جميل وشيك ووسيم؟ هل لأنه عاش تعيسا أو محروما أو يتيما؟ هل لأن صوته عزبا كنداء الكروان، ربما يكون كل ذلك، ولكن هل سألنا أنفسنا إن كنا أحببنا لطاعته لربه أو بره بدينه؟ وإذا لم يكن الرجل كذلك.. فهل يليق بنا أن نفسر هذا الحب بأنه حب الله؟ ألا يعد هذا الأمر افتئاتًا على الله تعالى وزورًا عليه جل شأنه؟

ربما يحتج بعضهم بأنه ربما كانت بينه وبين الله تعالى سريرة لا يعلمها إلا هو.. وهو كذلك فعلا ولكن، ما ذنب الدين حينما نشأ هذا الراحل على غير هديه، فيرى الناس أن ينشؤوا نشأته ولن يخسروا من الدين في النهاية شيئا؟ نحن بحاجة إلى الفهم والبصيرة والتمييز والإدراك والايمان بأن حب الأهواء يختلف تمام الاختلاف عن حب الله الذي له علاماته وسماته وأوضاعه وطرقه، وأنه أمر عظيم لا تملكه ألسنة البشر فيمنحونه من يشاؤون ويحرمونه ممن يريدون.؟!

الأزهر والنقاب

من قديم وفي زمن الصبا، كنت مشغولا بمسألة النقاب واللحية وتقصير الثياب.. وحاولت في كل هذه القضايا أن أصل للرد والجواب الحاسم الصحيح، وبما أن الأخوة السلفيين كانوا يُعدون هذه المسائل قضيتهم الكبرى التي يعيشون من أجلها، والتي تساوي عند الإخوان المسلمين قضية فلسطين وعودة الخلافة الإسلامية وتحكيم القرآن إن لم تكن أهم وأكبر، فقد كنت أجد الجواب على كل هذه الأمور لديهم، ولكني رغم هذا كنت حريصًا على معرفة رأي كبار العلماء، دون الالتفات لأقوال الدعاة الصغار، أو الذين ليس لهم باع كبير في العلم، حتى أهداني أحدهم كتاب (حجاب المرأة المسلمة) للشيخ الألباني، وأنا أحب الرجل وأجله وأكبر مقامه حتى لو اختلفت معه في بعض التوجهات، لكنه يبقى كما هو قامة وقيمة، وإمام الحديث في العصر الحديث، وإذا تكلم العلماء في الحديث فليخرس العلماء

وليتكلم الألباني، وهو العمدة في هذا الميدان، والحق أنني قرأت الكتاب، ورأيت الأدلة الواضحة الصريحة من السنة على وجود النقاب في عهد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكذلك وجود الحجاب بلا نقاب، أي أن الأمرين مباحين، ولم ينكر النبي على من سترت وجهها، ولم يأمر كاشفة الوجه بستره.. ومن أراد التزود من المعرفة والوقوف على الأحاديث الواردة فليرجع للكتاب.

ما كنت أبدًا أحب الكتابة في مثل هذه الأمور، حتى طالعنا حديث الرجل الذي ينتسب للأزهر، الرجل يتحدث حديثًا أهوجًا أبلها لا أساس له من العلم والدراية والوعي والفقه، فهو يقول: الأزهر لا يوجد فيه نقاب ولا يُعلم النقاب، وإذا أرادت الدَارِسِة لِبس النقاب، فلتخرج من الأزهر، لأن الأزهر مبيقلش فيه نقاب!

إن الرجل قد جعل الأزهر هو الدين، وهو الشريعة، وهو الوحي، فإذا لم يدرس الأزهر النقاب، فهل معنى ذلك أنه ليس من الإسلام؟ وإذا لم يدرس الازهر مذهب أحمد بن حنبل، فهل معنى ذلك أن ندهس هذا المذهب العظيم، ونلغي أئمته الذين ملأوا طباق الأرض نورًا وعلمًا، ونتنكر لزعيمه الذي كان له في يوم من الأيام فضل وجهد على الأمة كلها؟

وبما أنني أنتسب للأزهر الذي يتحدث عنه مبروك، أحب أن أقول له متسائلا حتى تكون الأمور واضحة: ما هو الأزهر؟ أليس هو المؤسسة التي يقوم عليها اليوم وأمس، كثير من الحكومات العلمانية التي تفرض عليها كثيرًا مما يوافق فكرها وهواها الذي يخالف دين الله؟

يدرس الازهر النقاب أو لا يدرسه فلا يهم، ولكن المُهم أنه شيء وارد في الدين وقائم في السنة، ولا ينكره إلا أبله جاهل.

حينما يقول الشيخ عبدالله الشرقاوي رحمه الله وهو الذي تربينا في الازهر على كتابه فتح المبدي بشرح مختصر الزبيدي، حينما يقول: وأما عورة المرأة خارج الصلاة فجميع بدنها عورة حتى الوجه والكفين، حتى عند أمن الفتنة، أليس هذا من علماء الازهر وشيخ الأزهر؟ وحينما يقول الامام عبد الحليم محمود رحمه الله : إذا لم تأمن المرأة الفتنة فوجب عليها أن تغطي وجهها وكفيها سدا للذرائع. أليس هذا من علماء الازهر وشيخ الأزهر؟

إن الرجل كثيرًا ما يحب الفخر في حديثه، فمرة يقول: وأنا عميد، ومرة يقول: أنا زعيم، كما أنه ألبس رجل الدين صورة المهرج في أحاديثه ودروسه التلفزيونية، فما عدنا نرى وقار عالم الدين في هدوئه وسمته وسماحته، وإنما تشعر أنك أمام بلطجي أو حاوي من أصحاب الثلاث ورقات، وفقدنا صورة الشعراوي والغزالي وعبد الحليم محمود، وهذا فعلا لأن الزمن يتطور ولكن للأسف للأسوأ، والشاشة كما هو معلوم لها سحر أخاذ، وأحيانًا تأخذ النشوة صاحبها ليتفوه بأمور مثيرة، حتى يكون حديث الساعة، وملء السمع والبصر، والرجل في حاجة ماسة للشهرة وإثبات الوجود ولا سبيل إلى ذلك إلا بإثارة الشبهات حول السنة والملتزمين بها، ليثبت للمشاهدين والحاكمين، أنه شيخ متنور حداثي يواكب العصر، ويتماشى مع الزمن، ولعل ذلك يُدر عليه منصبًا جديدًا، أو مزيدًا من الشهرة الكبيرة.

ولكني أتعجب من هذه الصورة المجحفة التي ظهر فيها مبروك وهو يصب جام غضبه واستنكاره على المنتقبة، بينما أمامه المذيعة، وهي امرأة في قمة تبرجها وسفورها، لم يقل لها كلمة واحدة يستنكر فيها تبرجها وسفورها، وهي التي جاء النكير عليها وعلى فعلها في القرآن والسنة صراحًا وضاحًا، أما المنتقبة فأمرها بَينٌ جلي في السنة الصحيحة، عن نبينا العظيم صلى الله عليه وسلم.

فعلا يا مبروك وكما قلت حُق للمنتقبة أن تكون رجلا، أما هذه المتبرجة التي تجلس أمامك فهي الأنثى الجميلة الحالمة الوادعة التي تمثل المرأة السوية المستقيمة، التي يرضى الله عنها ويحبها ويجعلها من المقربين! ألا شاهت الوجوه، وضلت العقول، ورحمنا الله ممن لا يقولون كلمة الحق ولا ينصرونه.!

لست فرعونيا

يحدثوننا دائمًا أن الفراعنة بلغوا الذرى في التقدم العلمي، وأنهم وقفوا على أسرار في العلم والهندسة والفلك والرياضيات، لا نعرفها اليوم، وهناك أناس حينما تُحدثهم عن الفراعنة، فإنهم يوهمونك أنهم علموا كل شيء، وتقدموا في كل شيء، وأحاطوا علما بكل شيء، فما عليك وأنت تحدث أحدهم عن كشف ما، حتى يقول لك: ثبت في حفريات الفراعنة، وجاء أمر ما في برديات الفراعنة.. نعم يحدث ذلك حتى لو حدثتهم عن صعود القمر واكتشاف الذرة، وربما لو حدثته عن مرض الايدز لوجدتهم يعرفونه ويعرفون له العلاج المناسب .!

ومع هذا الغلو في تقديس الفراعنة، إلا أن المتحدث دومًا ينسى أو يتناسى أن هؤلاء الناس، كانت عقولهم في قمة انحطاطها وهم يعبدون الحيوانات.! كانوا سباقين في العلم.. لكنهم متدهورون في الوعي والفهم والعقيدة، قوم وثنيون شأنهم شأن علماء الذرة والكيمياء والتكنولوجيا في الهند، حيث تجدهم قمة في التفوق العلمي والمعرفي ورغم ذلك يعبدون البقر، وهو ما يؤكد دوما أن هناك فرق هائل بين الثقافة والعلم.!!

كان الفراعنة يقدسون الأبقار ويعبدون العجل (آبيس)، هذا العجل كما قيل موجود بطول وعرض الحضارة المصرية القديمة، وتماثيله موجودة وهو يحمل قرص الشمس بين قرنيه، وكانت تقام له الحفلات، وتقام له الجنازات إذا مات، وبعد وفاته مباشرة، ينطلق الكهنة بين قطعان الماشية يبحثون عن معبود له علامة خاصة في رأسه أو عنقه أو جسده، فإذا وجدوه أقاموا له الحفلات وتوجوا المعبود الجديد، ويستريح الناس جدًا لأنهم وجدوا المعبود المنشود، وربهم المقصود الذي يعبدونه، الحارس الذي يحميهم ويحافظ على حيواناتهم وحياتهم.. ولهذا كانوا يقدمون له طعاما خاصًا وحريما من الإناث.! فأي سفه هذا؟!

ويقال: إن المصريين وصفوا ملك فارس مرة بأنه حمار، فما كان من الملك الفارسي (ارتكسركس الثالث) إلا أن أقام احتفالا للعجل آبيس، ووضع حمارًا بدلا من هذا العجل وغضب المصريون لذلك كثيرا وثاروا لإلههم.!!

ورد عن عميد الأدب العربي قوله الشهير: لو كانت الإسلام حائلا بيننا وبين فرعونيتنا فعلينا أن ننبذه.!!

والحق أنني كنت أتمنى ونحن ندمن إبراز حضارة الفراعنة، ونخفي ما فيها من سوءات، أن نتعامل بنفس المنهج مع الاسلام كحضارة وتراث، فنخفي ما في تاريخه من بعض الهنات، التي لم يتسبب فيها كدين، وإنما تنسب لأشخاص وحوادث، ولو أننا راجعنا تاريخ الفراعنة لوجدنا معايب هائلة ومنكرات يطفح بها تاريخهم من القتل والغدر والبطش والخيانة، أي تاريخ قوم لا يشرفنا الانتساب إليه.

فقهاء حائط الصد

حاول البعض في مقال لي عن الفكر السلفي وطبيعة تعامله مع مستجدات الحياة وفقه الواقع، أن يتهمني باتهامات كثيرة، كان أولها تحليلي للحرام، وسبي للعلماء، وترويجي للباطل، والحق أنني ما زلت عند رأيي وفهمي الذي طرحته أولا، لكن لابد من بعض النقاط المهمة التي يجب توضيحها قبل القفز مباشرة إلى الحديث عن الحكم بالحلال والحرام.

الكرة والرياضة أمر مباح في الاسلام، ووسائل الترفيه عموما لم يقيدها الشرع أو يحرم ممارستها في ضوء الحد المعقول والمسموح به، لكن حينما يصير الترفيه واللعب هم الإنسان وشغله الشاغل، فتصرفه عن الطاعات والمهمات والمسؤوليات، فهنا يقع المحظور وينتقل الحلال إلى حرام، والخلاف أولا كان حول سجود الشكر هل هو بدعة أم عمل يجوز؟ ولم يكن أبدا حول كرة القدم والموقف منها.

لكن لابد أولا من نقطة مهمة تتعلق بنظرة الفقيه الداعية، لا بنظرة المحدث الأصولي الحرفي النصوصي، الذي لا يرى أمامه غير النص غير عابئ بجديد الحياة، وهي مشكلة قديمة في البيئة الاسلامية، قامت بسببها معارك كثيرة واتهامات وأحكام جائرة قاسية.

فالفقيه الداعية ينظر للواقع ويتعامل معه، ويكيف أحكام الإسلام بما يستوعب هذا التغير، وهو نفس الأمر الذي نتحدث عنه في شأن كرة القدم، التي أصبحت اليوم ركيزة أساسية وضرورة حياتية لدى الناس، أو هكذا صورت لهم أهواءهم، حيث ترى أحد المشجعين ربما يترك الصلاة من أجل مشاهدة إحدى المباريات، لقد أصبحت عند البعض منهم مرضا لا يمكن شفاءه.. إذن فما العمل هنا؟ وكيف يكون تعامل الدعاة والفقهاء مع شيء صار وقعيا وأساسيا وعادة عالمية مستحدثة، لا يمكن محوها وإزالتها وحربها وطمسها من دنيا الناس؟

هل نعاقب كل من شاهد مباراة وأقام دوريا بالسجن والقتل؟

هل نكفره ونظهر له عصيانه وفسوقه؟

هل نهجم على الجماهير في الاستاد بالضرب والسحل والصعق والاعتقال؟ حتى يكره الناس الاسلام والمسلمين، ونزيدهم نفورًا عن الله على ما هم فيه؟

ما العمل إذن؟ إن العمل البصير الحصيف في التعامل مع مشكلة مثل هذه، لا يمكن لأي قوة في الدنيا أن تمنعها، هو أن نبحث عن المداخل التي تُعبِّد هذه الرياضة لله، والاسلام أبدا لا يمنع هذا، وبهذه الحكمة والحنكة والدهاء، تتحول هذه العبادة التي هي محرمة عند البعض، إلى عبادة محمودة غير مذمومة.

قام لاعب عالمي بالسجود لله في ساحة الملعب بعد كل هدف أحرزه، فتعلم الناس في هذا الصنيع شكر النعمة، ومعرفة الخالق الذي يوفق كل من شكر نعمته وحرص على السجود له، حتى رأينا الأجانب الذين هم على غير ملة الإسلام، يقلدون اللاعب محمد صلاح، ويسجدون لله سبحانه، وهي العبادة التي سيأخذ أبو تريكة ثوابها لأنه أول من أحدثها ونفذها وقلده فيها من بعده.

فهل هنا ومع هذا الأمر الواقعي، يليق بالفقيه الحصيف، أن يصدم الناس بالحكم الأول الذي يحرم كرة القدم ودواعيها، فيحرم من مبعثه سجود الشكر؟؟

إن هذا تعنت وتصلب مضاد لروح الإسلام وفهمه العالي، وقدرته على التعامل مع الأحداث والمستجدات.. ناهيك عن أن هذه الكرة والرياضة عموما صارت اليوم حرفة

ومهنة، ولها وزارات ومؤسسات وهيئات لتستوعب طاقات الشباب والفارغين، إما بالممارسة أو المشاهدة.. فهل نصادم كل هذا الواقع الذي لا يمكن الاستغناء عنه في حياة الناس، أم نحاول ونشجع كل السبل الإيمانية الجيدة التي تأتينا من ورائه؟ ولعل الجواب لكم.

ماذا لو وزعنا على المشاهدين أذكارا وأدعية، ماذا لو طفنا عليهم بصناديق للتبرع من أجل الخير وهم جالسون للمشاهدة، ماذا لو علمناهم أن يصيحوا بالتكبير مع كل هدف، ماذا لو وزعنا عليهم بعض الكتب الدينية هدية يستذكرونها، ماذا لو أوقفنا المباراة لإقامة الصلاة، ماذا لو أحطنا الملاعب بلوحات تحمل بعض الاحاديث والآيات القرآنية؟

هل كل ذلك يكون بدعة وحراما لأن كرة القدم في نظر البعض صارت محرمة؟!!

يقول الحيث : (ذاكر الله في الغافلين كالمجاهد في سبيل الله)

وهذا الفقيه الذي أفتى بحرمة وبدعة سجود الشكر في الملاعب، كان عليه قبل أن يفتينا بهذه الفتوى، أن يقول لنا ويخبرنا ما الحل في التعاطي مع هذا الواقع الراسخ في حياة الناس؟ وهل يمكن من طريقة أن ننفذ فيه بشيء يخدم الدين والإيمان اليقين؟

إن أسلوب حائط الصد لا ينفع في هذا الزمن، ولابد من تغيير الفكر والفهم في التعاطي مع الأحداث بما يخدم الدين وتقبله روح الإسلام.. أما أن أرطم الناس في حائط مسدود، فهذا لا ينفع الإسلام بشيء.. ونعود على ما بدأنا في منظور الفهم السلفي للأحداث، وتعاطيه الفقهي مع المستجدات والمتغيرات، لأقول وبكل صراحة: لو أطلق العنان لهذا الفقه وشيوخه، لحرموا علينا الحياة كلها بمظاهرها وإحداثياتها وكل جديد فيها، لحرموا الراديو وبناء العمارات والملاعق والتداوي بالحقن والعمليات الجراحية وحرموا السيارات وركوب الطائرات، بل أيضا لحرموا القتال بالأسلحة الحديثة في مواجهة الأعداء، لننهزم ونضيع ونخسر، وكل ذلك بحجة أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يفعلها، ولا صحابته الكرام، ومن ثم فهي بدعة مزرية.!

ولا شك أنه فكر ضيق وعقيم ومتأخر، يعقد حياة الناس وينفرهم من الإسلام.

كرة القدم وملاعبها لم تكن بالخمارات التي يشرب فيها الناس ما حرم الله، ولم تكن كبيوت الدعارة التي يرتكب فيها الزنا والفجور، ولكنها وسائل إلهاء وترفيه، تمكنت من عقول الناس، وصارت واقعا ركيزا لا يمكن منعه، وهنا نحتاج للفقهاء الأذكياء ليتعاملوا مع الموقف، ويقللوا حجم الإلهاء، فيتخللها ذكر الله وشكره على النعم، كما نحتاج لفقهاء الصدود أن يخرسوا حتى لا يصيبنا عقمهم، ويؤخرون مسيرة الدعوة، وينفرون الناس من الإسلام.

أنا أتعجب كيف تتحول نعمة إلى نقمة؟ وكيف تتحول عبادة في أجوج مكان يتطلبها إلى بدعة محرمة.. أخشى أن يتحول أمثال هؤلاء الفقهاء ليكونوا أمثال من يصد الناس عن ذكر الله.. ولا شك أن جهلهم بفقه الواقع الذي تتغير الفتاوى والأحكام بمنطوقه سيجعلهم يأتوننا بكثير من الغرائب والعجائب من الأقوال والأحكام.

أكاذيب في مصر

اصدم ثم اصدم ثم اصدم ليتحرر العقل من غفلاته..

انا باحث في التاريخ والعلم وما يحكمني كثيرا في أطروحاتي هو البحث والمعرفة وكشف الغبار عن كثير من القضايا التي نجهلها والتي تمثل في حياتنا يقينا كبيرا، فأرجو أن لا يأتي إنسان أو متحذلق من الناس ليقول لي لا تؤجج الفتن ولا تتكلم عن تاريخ مضى ولا تحكي فيما لا يفيد؟! والله يا اخي هي لا تفيدك لكن تفيد غيرك وتنير له كثيرًا من دروب العتمة لأن ما نحن بصدده من العلم الذي يغني ويقني.. قد ترانا تافهين أو نحرث في غير حقل ولكننا عند غيرك نرى من يثمن كلامنا ويشيد بقدرنا.

انظر أخي للصوفية الضالة المبتدعة ومعنى قولي الصوفية الضالة المبتدعة أن هناك صوفية راشدة مهتدية طائعة، وذلك إيماني من قديم في غير غلو أو محاباة، انظر إليهم ليقننوا إنهم يؤمنون بوجود رأس سيدنا الحسين في مصر ووجود قبر السيدة زينب أكثر من إيمانهم بوجود الإله العظيم، فإذا ناقشتهم بالعلم وأكدت لهم أن ذلك غير صحيح، هاجوا عليك

وماجوك وكفروك وجعلوك من أهل الضلالة، مع أن العلم الثابت والتحقيق الصحيح، يقضي أن السيدة زينب لم تدفن بمصر وأن وجود رأس الحسين فيها أكذوبة كبرى.

أشعر بكثير من الخجل وأنا أقرأ ما حدث وكيف تم الضحك على عقول المصريين بهذه الادعاءات من الكذبة الأفاقين الذين أرادوا فقط جنى المال وتعزيز أفكارهم ليلتف حولهم العامة مؤيدين متعصبين، لعب كبير بورقة الدين واستغلال لحب أهل البيت من أجل المصالح.

اذهب اليوم في أحد الميادين وقل إن رأس الحسين ليست مدفونة في مصر وأن قبر السيدة زينب ليس لزينب بنت علي لترى الحجارة تأتيك من كل جانب وربما أطلق عليك أحدهم الرصاص أو دهسك بسيارته، لأنك بهذه الدعاوى في نظره تساوي تماما إنكار الألوهية، والتكذيب بدعوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه مشكلة كثير من إخواننا الشيعة حينما جعلوا حب أهل البيت عقيدة مقدمة على كل العقائد وعلى رأسها عقيدة التوحيد.

لكنني أرى أن من واجبي الأول وحبي لأهل البيت أن أدافع عنهم ضد من كذب عليهم وادعى زورا على أهل مصر أنهم في دوحتها العطرة وتربتها الغامرة، وما ذلك بصحيح.

شيء مذهل حينما ترى رأسا عظيما في العلم كابن كثير يقرر بأن الادعاء بوجود الرأس الشريف في مصر كذب وخيانة.!

إن زينب رضي الله عنها قضت كل حياتها بالحجاز إلى أن انتقلت إلى جوار ربها بالمدينة المنورة، وتم دفنها بالبقيع، وما هذا الضريح في مصر إلا ضريح امرأة صالحة تسمى زينب، ولم يكن في مصر وجود لمثل هذا الضريح إلى ما قبل عهد محمد علي بسنوات معدودة.. ولعل هذه الفترة من الزمان بالتحديد هي الفترة التي كانت عقول المصريين فيها مؤهلة لمن يعبث بها ويمكن له بكل سهولة أن يدخل عليهم كثيرا من الأغاليط والريب، وإن شئت فلتراجع تاريخ الجبرتي لترى الأعاجيب في عقلية المصريين ومدى خفة عقولهم ، ترة ذلك تحديدا في قصة المعزة وغيرها من القصص التي تؤيد ولعهم بالخرافات وتصديقهم للكهنة والدراويش المخرفين المبتدعين.

أعرف الآن وانتظر من يقول لي ماذا يفيدنا هذا الحديث؟

يا أخي هو يفيدني أنا فلا شأن لك به.. وإن كدرتك قراءته فأنا أعتذر لك.!

لا تفسدوا عليهم جهادهم

أحب دومًا أن أنزل الناس منازلهم، وأكرم وأعظم في نفسي كل من كانت له سابقة فضل أو جهد مذكور، وقريبا في قريتي سرت دعوة كريمة سامية مخلصة، تدعو وتنادي بتكريم أبطال أكتوبر والعبور العظيم، وسارع كل الناس وأنا واحد منهم، بإدراج أسماء أقاربهم وذويهم، ولكني مع بعض المشاهد، لمست أن بعض الناس يتخذ من هذا الأمر مسار فخر وتيه، متباهيا بيننا بأن قريبه بطل من الابطال، وفارس من الفرسان، وما في ذلك عيب أو شين او سوء، بل هو مفخرة لا تضاهيها أي مفخرة من مناقب الدنيا ومحامدها، لكن الخوف كل الخوف على هؤلاء المكافحين أنفسهم من مجاهدينا القدامى، حينما يتبدل في نفوسهم مأرب هذا الجهاد العظيم وغايته، التي كانت حسبة في سبيل الله، لتسعى وراء التكريم الدنيوي، والفخر الحياتي، وإشادة الناس بما قدموه من بلاء عظيم.

ولعل الدافع وراء هذا الشعور، هو تأملي للحديث الشريف الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كان أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتى به، فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار" وقى الله أبطالنا الكرام كل شر وسوء، وجزاهم خيرا عظيما على جهادهم وبطولتهم، وجعل هذا النضال في ميزان حسناتهم يوم الدين.. لكن الأمر في نفسي لا يعدو إلا أن يكون دورانا حول مشاعر متضاربة، لأنني أحب تكريم هذه النخبة البطلة، وفي ذات الوقت أخاف على ما يدخره الله تعالى لهم من ثواب جهادهم المؤزر..

أما الذين قضوا نحبهم في هذه الحرب، واستشهدوا فيها، فإنهم لا خوف عليهم من معاني الفخر والتباهي والرياء التي تفسد ثواب الأعمال، وتضع موازين الجهود عند الله تعالى،

وهؤلاء يمكن لنا تكريمهم، والإشادة بهم، وكلنا ثقة واطمئنان على جهادهم الذي لن يضره فخر قريب أو نشوة حبيب.

هذه وجهة نظر، لا يمكن أبدا أن تنبع إلا من حب لهؤلاء وقلق على مخزون ثوابهم ورصيد فضلهم، وليس لها غرض آخر مما يظنه البعض إلغاء لبطولتهم وشهامتهم، فهم في القلب والعين.. ولو أن أحدهم وضع الحديث الشريف الذي نقلته في مستهل كلامي، في مرمى بصيرته، لأصابته قشعريرة غائرة، وسارع ليرد كل من يذكر اسمه، ولسان حاله، لا تفسدوا على جهادي.. وقبل أن تنتقد كلامي، تأمل معي ما تأملته، وعش معي ما عشته، واعرف هدفي مما ذكرته، ولو كانت لديك وجهة نظر أخرى، فبينها لي عسى أن يكون رأيي خطأ فأرتد عنه.. والكلام ليس موجها لشخص بعينه، وفرد بذاته، وإنما هي فكرة قابلة للأخذ والرد.

ارحمونا من فلسفاتكم

دائما ما يزعجنا هؤلاء المتشدقون بفلسفاتهم الخرقاء.

فلا تخلو حياتنا وأحوالنا وشؤوننا من -هريهم- الفارغ، واجتهاداتهم المجحفة، التي لا تترك شاردة ولا واردة، إلا وأعلمت فيها، بالنقد والاعتراض وسوء الظن وسلبيتهم العقيمة.

وفي غمرة هذا الزمن الذي ضاعت فيه ملامحنا، كمسلمين، وتنكرنا فيه لتراثنا وعاداتنا وهويتنا وعمقنا العربي، صرنا نقلد الغرب في كل شيء، في المأكل والمشرب والملبس، حتى في المشية والنظرة والتعامل والعلاقات، فكل شيء حولك منشأه وصناعته غربية، حتى سروالك وقميصك، لا تفضل منه إلا الغربي.

حتى ظهر بعض هؤلاء الذين يلمسون الأصالة في نفوسهم وأهواءهم، فترى الواحد منهم يسمي محله أو تجارته، بأسماء إسلامية عربية، كأن يطلق مثلا على مشروعه اسم، القادسية، القيروان، الفرقان، أو يسمي شركته باسم علم من أعلام الهداية والبطولة الإسلامية، كابن القيم وابن تيمية وابن حنبل.

وهذا لعمري شيء محمود يبعث على الأمل، في ظل هذه الغيبوبة المستعرة، فربما يخرج هذا الجيل المتغرب، ليرى ويسمع مثل هذه الأسماء، فيأخذ نفسه بالبحث والسؤال، ماذا تريد؟ وما حقيقتها، وماذا كان وماذا حدث.؟ لكن هؤلاء المتفلسفون لا يتركون هذا البصيص المأمول، يؤدي غرضه، ويبعث هدفه، حتى يشيعوا عليهم ما يهدم كريم أصالتهم.

كنت في يوم من الأيام مع أحد الأصدقاء، فمررنا على محل للنظارات، وقد أطلق عليه صاحبه اسم (المركز الإسلامي للنظارات) وهو الاسم الذي لم يرق لصاحبي، وأخذ ينتقده ويرده بقوله: إنهم يتاجرون بالدين.!

ولا أعرف لماذا هذا الظن السيء بغرض القوم ونيتهم، فلربما أرادوا بهذا الاسم أن يحييوا اسم الإسلام، أو يستجلبوا به البركة في تجارتهم، أو أنهم رأوه تعبيرا عمليا على حبهم لدينهم، أو أرادوا تعليم الناس أن الإسلام موجود يحث على التجارة والعمل.

تأويلات كثيرة جدا يمكن أن تحل محل نظرتهم السوداء، التي لا تدع شيئا إيجابيا إلا وأعملت في بالهدم والتجريح.. لقد أخذ هؤلاء بدور العلمانيين والملحدين الذين ينتقدون ويرفضون كل ما يمت للدين والتراث والهوية بشيء، حتى في أبسط الأمور والأحوال، إن كلمة الإسلام تسبب لهم الحساسية في كل شيء، وتحرك عقولهم لتبعث بفلسفاتهم الكريهة، متحاملة على دلائل هويتنا الدينية.

رأى أحدهم يوما رجلا يشتري بعض الملابس لولده، ولكن التاجر غالى في السعر، فما كان من الرجل إلا أن استعان هذا الغلاء ببعض آيات القرآن والحديث وأقوال السلف، حتى لان التاجر وقلل من الثمن، ورآه الناظر من زمرة المتفلسفين، وعلق بقوله: إنه يتاجر بالدين، ويستخدم نصوصه في تحقيق مصالحه وأغراضه، هكذا سولت له نفسه الضيقة وعقله المأفون، فبدلا من أن يتوجه للبائع المستغل المغالي، توجه نقده لمن ينطق بآيات الله، ولم يحسن به الظن، أو يفرض له الأعذار.

وأنا أقول: حتى لو قصد أمثال هؤلاء التجار استغلالهم للدين في تحقيق الكسب، فما فعلوه أمر محمود يحسب لهم، ويثابون عليه، حينما أحيوا معالم الدين وتراثه وأسماءه وهويته التي أوشكت أن تندرس، ويجرفها تيار النسيان.

ارحمونا من فلسفاتكم

عواطف ساذجة

وقف المتحدث يومًا متفاخرًا بما حدث في حي شهير من أحياء القاهرة، حين أقدم النصارى على بناء كنيسة شاهقة، فصمم المسلمون أن يبنوا مسجدا كبيرا بمنارات أعلى وأشهق من منارات الكنيسة.

كان المتحدث منتشيًا بهذا التحدي، ويعتبر أن الإسلام قد انتصر في المعركة، حينما لم يترك النصارى يستقلون باحتلال السماء وحدهم.. وهذه النظرة هي نظرة عاطفية ساذجة لا تحقق مكسبًا ملموسًا على الأرض والواقع.. لأن الانتصار الحقيقي للإسلام، إنما يكون ببناء الضمائر وتطهير القلوب والنفوس، قبل المباني والمنارات والمآذن العالية.

لقد أخذ القوم يعبئون العقول والهمم، وكأنهم يعبئون الناس للجهاد في سبيل الله، ويشعر أحدهم في اليوم الذي تعلوا فيه منارة المسجد، أنه ذلك اليوم الذي انتصر فيه الإسلام على خصومه وأعدائه.. وهو شعور جاهل وإحساس مكذوب، ووسيلة ممجوجة لبث روح العداء بين قطبي الأمة.

بل هي روح شريرة، يتم بعثها في قلوب أبناء الوطن ليبغض بعضهم بعضا، ويسهلون لأعداء الإسلام من خلال هذه التصرفات العاطفية الجاهلة سبيلا لوسمه ومعتنقيه بالتشدد والعداء والتطرف

نقول وبكل صراحة: إن الدين لا ينتصر ببناء المساجد..

كان الوالي المصري علي بن سليمان قد أمر بهدم بعض الكنائس، فهاج الإمام الليث بن سعد، وكتب إلى الخليفة العباسي بالأمر بعزل الوالي، لأن ما فعله خالف فيه روح الإسلام، ولما تولى الوالي الجديد موسى الهاشمي، أمره أن يعيد بناء الكنائس المهدمة، وأن يبني كنائس جديدة كما طلب المسيحيون في مصر، موضحا له أن أغلب الكنائس التي كانت موجودة بمصر، إنما بناها الصحابة، ممن قادوا جيش الفتح الإسلامي لمصر.

ومن أروع لفتات البيان التي قرأتها في التفاسير، حول قول الله تعالى:(ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض، لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد، يذكر فيها اسم الله كثيرا.)

أن الله تعالى قدم في الآية دور عبادة النصارى واليهود على المساجد، احتراما لملل الناس وأديانهم.. وهو الحال الذي خالفه المجاهدون الجدد.. ورحم الله من قالت: حينما كانت مساجدنا من جريد حكمنا العالم.

مؤخرة الدجاجة

قرأت قديمًا في كتاب الطبقات الكبرى للشعراني، أن أحد الأولياء كان جالسًا يأكل في دجاجة، فجاء ولده فأعطاه منها وقال له: خذ مؤخرة الدجاجة فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، يحب مؤخرة الدجاجة، فلما سمع الفتى ذلك، قال لأبيه: إنها قذارة.!

لما سمع الأب هذا الكلام، كان بجواره سيف، فلم يدر إلا وهو يمتشقه ويهوي به على عنق ولده.

وعلى قدر قسوة الموقف وعنف العقاب، وخروجه عن المنهج النبوي في محاسبة المخطئ، وعلى يقيني أن مثل هذا الموقف ربما يكون من المدسوسات على طبقات الشعراني، إلا أنه يعلمنا في المقام الأول قدسية مقام النبوة، وحرمة الجناب المحمدي، وأن مجرد اسم النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر، فلابد من الخشوع والخضوع والإعظام والإكرام، لقد قال الله

تعالى له: ورفعنا لك ذكرك، وهكذا حينما يذكر رسول الله أو شيء من خصائصه، فلابد أن تنال الرفعة من نفوسنا.

لقد استرعبت واستوحشت هذا القول النكر من الفتى الذي صعد المنبر، وخانه التعبير، وتلفظ بجملة تنهد لها الجبال هدا، فقال: عن يوم المولد النبوي الشريف: يوم منيل بستين نيلة.. ويعلم الله أنني لو كنت حاضرا لأنزلته من على المنبر صاغرا وما سمحت له أن يكمل، وربما لطمته لطمة أو لطمتين، لأن الفتى لم يكن قوله مجرد خطأ وتسرع، وإنما قدم البرهان على أنه لم يتأدب بعد، وأولى به أن يتعلم التربية ويستلهم التزكية قبل أن يصعد المنبر.

ومن يجن إثم هذا الحدث الغر الذي جاء بآبدة، هم من صدروه للمنبر، وألبسوه العمامة، وأفهموه أنه داعية، هم وحدهم من يتحملون وزر هذا الإفك والسوء.

وهذه هي المشكلة التي نعانيها من بعض التيارات التي تنتسب إلى التدين، وتدفع فتيانها لتصدر المنابر قبل أن ينالوا قسطا من التربية القويمة، وهو نفس الحال حينما تناقش أحدهم لتجده القمة في التطاول والوقاحة وقلة الأدب، ولعل المنبر يكون أكثر تحجيما لأمثال هؤلاء، فلا تظهر على أمثالهم وقاحتهم المتأصلة، بقدر ما تتأجج وقت الحوار.

إن فقدان التيارات الإسلامية وبعض شبابها لمعالم التزكية الحقة، أفقدها كثيرا من جوهر الدعوة وثمرة التدين، وكيف لداعية يدعو الناس، ويقول: إنني أمثل الإسلام، ثم يكون قبيحا سبابا شتاما؟

أولى به أن يدعو نفسه ابتداء ليلتزم أدب النبوة.

كانت هذه الوقاحة قديما تتفشى في بعض غلمان التيار السلفي، ومعروفة في كثير من أتباعه، لكنها اليوم صارت عدوى وأكثر تفشيا في غلمان الصوفية، الذين يزعمون أنهم معقل التزكية ومعينها الأصيل، ثم إذا حاورت أحدهم وخالفته، تنزاح الستائر عن وحش حقير، ومارد سافل، لم تر مثله في البشاعة والوضاعة والانحدار.

المنبر له قدسه واحترامه، ولا يجب أن يرتقيه إلا مهذب مؤدب واع عالم، ولا يمكن أبدا أن يكون ميدنا لأغيلمة لا فقه لهم ولا رشد، يسمعون الناس الطيش، ويعلمونهم السب والشتم.

لقد نهينا عن سب الدهر، ولولا ذلك لكنت لعنت اليوم الذي جاء فيه غلام أحمق يسمعنا مثل هذا الكلام.. لقد وقفت أتأمل، ولم استطع التحمل، وقلت في نفسي: كيف استطاع نطقها؟ لله ما أبشعه.! والمصيبة أنه على المنبر سفينة الهدى ومنارة الرشاد.. وإذا كان التطاول على المولد المحمدي بهذه الصورة، وهو ما ينكر الفتى الاحتفال به ويجعله بدعة، فكيف به إذا اختلف مع إمام من الأئمة في حكم من أحكام الفقه والدين؟

لا شك أنه سيكون أكثر فجاجة وتطاولا وقبحا وتهجما.

لكم تمنيت ان تكون للتربية شهادات ودرجات كما للتعليم، حتى لا يتصدر المنابر إلا من نالها وتفوق فيها، لأننا نحتاج إلى تربية الناس قبل تعليمهم.

ربوا شعوبكم على الحرية

حقا كما قيل: الناس على دي ملوكهم.!

نعم.. فالحاكم بين شعبه ورعيته تماما كولي الأمر ورب الأسرة والمربي بين أولاده، الذي يملك وحده أسلوب تربيتهم، وطريقة تكوينهم وصياغتهم في الحياة، وحده فقط من يملك أن يغرس فيهم ما شاء من الصفات والأخلاق والطباع والسمات، فهم يشبون على سلوكه وتعليمه ويتشربون أخلاقه.. قال الشاعر:

وينشأ ناشئ الفتيان منا.. على ما كان عوده أبوه

ولعل الحرية والعبودية هي أكثر وأهم وأبرز الصفات التي ترتبط في بعلاقة الحاكم بشعبه، فبيده وحده أن يجعل منهم أحرارا، وبيده وحده أن يجعل منهم عبيدا، حسب ما رباهم، وحسب ما غرسه فيهم من سلوك وطباع.

لقد وصف القرآن الكريم فرعون وكيف استعبد قومه وجعل نفسه إلها عليهم! وملأ حياتهم بالرعب والخوف والظلم.

قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)﴿٣٨ القصص﴾

(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ) ﴿٤ القصص﴾

وهكذا تُربى الشعوب، على هذه الخصال، فيحرمون من الحرية ، ويشبون على العبودية، وتأليه الفرد، وتصير العبودية هواءهم الذي يتنفسونه، وماءهم الذي يشربونه، تتلبس بأجسادهم، وتلتصق بأرواحهم، فلا يستطيعون العيش بدونها ولا يصورون حياتهم بعيدة عنها، حتى إذا جاءتهم الحرية تخفق أعلامها وتدق طبولها ركلوها بأقدامهم وولوها ظهورهم وأشاحوا لها بأياديهم، وذهبوا مهرولين يبحثون عن العبودية إلفهم وهواهم ومعشوقهم العظيم.

يقول سيد رحمه الله: "العبيد هم الذين يهربون من الحرية، فاذا طردهم سيّد؛ بحثوا عن سيّد آخر، لأنّ في نفوسهم حاجة ملحّة إلى العبودية، لأنّ لهم حاسّة سادسة أو سابعة: حاسة الذلّ، لابد لهم من إروائها، فاذا لم يستعبدهم أحد؛ أحسّت نفوسهم بالظمأ إلى الاستعباد"

ولعل التعامل مع العبيد أو الشعوب المستعبدة ومحاولة اقتلاعهم وإنقاذهم مما هم فيه من براثن العبودية من أصعب المحاولات التي يقوم بها المصلحون ويجدونها في دعوتهم، فقد جسمت العبودية على قلوب الناس وعقولهم واستقرت في وجدانهم حتى صارت إكسير الحياة.! ولكن ما أسمى الإسلام الذي جاء إلى الأرض لإرساء معالم الرحمة والحرية وتحرير الانسان من ظلم أخيه الإنسان، وهدم قلاع البغي ودول الطغيان، وتطهير الأرض من عدوان كسرى وقيصر.

انظر لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ماذا قال لعامله على مصر حينما جاءه القبطي شاكيا مظلوما؟! لقد قال كلمته الخالدة الباقية: يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!

وفي ظل تربية الشعوب لا يمكن أبدا أن ننسى هذا البلاء الذي حل بمصر على يد الطاغية عبد الناصر الذي ربى شعبه على العبودية، وملأ حياتهم بالخوف والجبن والسجن والاعتقال، حتى خرج أجيالا تسبح بحمد الحاكم وتجعل منه إلها لا راد لقوله ومشيئته.

جاء في سيرة المصلح الكبير مدحت باشا أنه ألف مجلسا للشورى في بغداد يرجع إليه في أمور الولاية، ولم يكن الناس يألفون الجهر بالرأي والشجاعة في القول، ولا يعد لهم بجانب رأي الوالي رأيٌ، فجمعهم يوما وقال لهم: إني أرى الحاجة ماسة إلى استئذان الباب العالي في زيادة الضرائب لتنفيذ ما نرى من وجوه الإصلاح فماذا ترون؟ قالوا جميعا: موافقون، هذا هو الرأي وهذه هي الحكمة، فكتب بذلك محضرا وختمه جميعهم، ثم جمعهم في اليوم الثاني وقال: لقد فكرت في أمر زيادة الضرائب فتراءى لي أنها ظلم فادح لا يستطيعه الناس، ولكن محضر أمس أرسل، فإذا رأيتم هذا الرأي صوابا كتبنا كتابا آخر ألحقناه به، وبينا الأسباب الموجبة لنقضه، فقالوا: نعم الرأي ما رأيت! ووقعوا على الثاني كما وقعوا على الأول، فأمسك بالمحضرين هذا بيد وهذا بيد، وقال والله ما أرسلته، ولكن أردت أن أختبركم، فما قيمة المجلس إذا رجعتم دائما إلى رأيي وحده؟! ثم ألقى عليهم درسا قاسيا في الحرية وفوائدها، والشخصية وتكوينها، والاستقلال في الرأي ومزاياه."

يقول الإمام محمد رشيد رضا : إن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتُساس بالظلم والاضطهاد؛ تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتُضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع. وإذا طال عليها أمد الظلم تصير هذه الأخلاق موروثة ومكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطبائع الخُلُقية، إذا أخرجت صاحبها من بيئتها ورفعت عن رقبته نيرها؛ أَلْفَيْتَه ينزع بطبعه إليها، ويتفلت منك ليتقحم فيها. وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه، ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر. وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلًا لهدايته وضلال الراسخين في الكفر من أُمَّة الدعوة، فقال: «مَثَلي ومَثَلكم كمَثَلِ رجل استوقد نارًا، فلما أضاءت ما حولها جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، وجعل يحجزهن، ويغلبنه فيتقحمن فيها؛ فأنا آخذ

بحجزكم عن النار، وأنتم تقحَّمون فيها» (رواه الشيخان). أفسد ظلمُ الفراعنة فطرةَ بني إسرائيل في مصر، وطبع عليها طابع المهانة والذّلّ، وقد أراهم الله تعالى ما لم يُرِ أحدًا من الآيات الدَّالَّة على وحدانيَّته وقدرته وصدق رسوله موسى عليه السَّلام، وبيَّن لهم أنّه أخرجهم من مصر لينقذهم من الذُّلّ والعبوديَّة والعذاب إلى الحرِّيَّة والاستقلال والعزِّ والنَّعيم، وكانوا على هذا كلّه إذا أصابهم نَصَبٌ أو جوعٌ أو كُلِّفوا أمرًا يشقُّ عليهم؛ يتطيَّرون بموسى ويتململون منه، ويذكرون مصر، ويحنُّون إلى العودة إليها، ولمَّا غاب عنهم أيَّامًا لمناجاة ربِّه، اتَّخذوا لهم عجلًا من حُليِّهم الَّذي هو أحبُّ شيءٍ إليهم وعبدوه، لِمَا رسخ في نفوسهم من إكبار سادتهم المصريِّين، وإعظام معبودهم العجل (أبيس).[1]

تصريحات قلبت الموازين!

كثيرون لم يعجبهم تصريح الشيخ المسلم القعيد (فريد أحمد) تجاه السفاح الإرهابي النيوزلاندي الذي قتل ٤٩ مسلما ومسلمة في مسجدين بنيوزلاندا، ووصفوها بأنها تصريحات بلهاء تفوح مياعة وانهزامية وخنوعا وانبطاحا وتبلدا، وأن الإسلام ليس على هذا النحو الضعيف، والصورة المستسلمة، وأن الأولى به أن يتوعد ويترصد ويكيل التهم، ويطالب بأقصى العقوبة للقاتل السفاح، أو لعله يمسك بالسلاح ويبادر إلى أقرب كنيسة ليقتل من فيها أو يفجرها بحزام ناسف.

وقد يكون الرافضون على حق حينما يتعاملون مع الكلام بسطحية مجردة، ولا ينظرون إلى العواقب والثمار التي يجنيها هذا التصريح في بلد تعيش فيه أقلية مسلمة، تحاول أن تثبت للعالم كله سماحة الإسلام وروحه المسالمة، وتعاليمه الراقية الصافية، أمام حملات تشويه منظمة تنال من وجودهم، وتهدد مستقبلهم وتصيب عقيدتهم في مقتل.

[1] - تفسير المنار (٦/ ٢٧٩).

بل تبلغ السطحية مبلغها وتعلو قمتها في الهرف والتفاهة، حينما تهاجم تصريحات الرجل على أنه رجل فرط في حق زوجته التي تحبه وحاولت نجاته وما هكذا يكون الوفاء، ولكنها طبيعة الرجل النكار للجميل، والفضل والكافر بالعشرة ومودة المرأة التي كتب عليها دوما أن تضحي وتبذل وتتعب، لقد قلبوا المأساة إلى المطالبة بحقوق المرأة، ومالوا بقضية الإسلام للتنديد بمكانة المرأة المهدرة، ولا أعرف من أين أتوا بهذا التصور الأخرق، الذي كان الموقف برمته بعيدا عنه كل البعد؟!

وفي الوقت الذي لم يعجبنا فيه كلام هذا المسلم القعيد، كان الإعلام يجلجل بتصريحاته، التي أكسبت الإسلام في نيوزلاندا وعيا آخر غير ما يُشاع عنه بأنه دين الإرهاب والعنف.. لكن الشيخ فريد يكسر القاعدة، ويبدد تلك الدعاوى الظالمة، وهو في أقصى محنته، وأبلغ تأثره، ليثبت أن حب الإسلام والدعوة إليه، أسمى من كل عزيز في الدنيا، وأن إعزازه أثمن من كل خسارة.

ولا أعرف ما الذي يفرق بين موقف الشيخ فريد في فقده لزوجه وموقف النبي الكريم صلوات ربي وتسليماته عليه، حينما قتل أحب الناس لديه وهو عمه وأخيه في الرضاع (حمزة بن عبد المطلب) ومن شدة حزنه وعد بالفتك بسبعين من قريش فداء له، لكن الله تعالى حثه على العفو، وأرشده للصفح، وعفا عن القاتلين الذين دخلوا دوحة الإسلام وآمنو به وصدقوه، فقبلهم مسلمين صادقين.

وفي فتح مكة كان العفو العام الذي أعلنه الرسول الكريم وخلده التاريخ حينما قال لقومه اذهبوا فأنتم الطلقاء، فقالوا أخ كريم وابن أخ كريم ، وهم من هم؟ إنهم من قتلوا أصحابه وعذبوهم وحاربوا دعوته وتآمروا عليه وحزبوا الناس ضده، ومع ذلك ترك كل هذا وأعرض عن حظوظ النفس في الثأر والانتقام، وعفا عنهم لأنه يعلم أن هذا العفو هو الطريقة السحرية التي تهدم الكبر وتخجل أمامها النفوس وتسوقها لاعتناق الاسلام.. نعم إنه الانتصار الحقيقي ولكن أكثر الناس لا يفقهون!!!

لا شك أننا لو تجردنا من الغاية، ولم نسير حياتنا وفق رسالة، ولم ننذر أيامنا لهدف قيمي عظيم فإننا، نتعامل مع كثير من الأمور والأحداث والمواقف بعاطفة إنسانية ومنطق بشري، وحقوق تكون لنا أو علينا، لكن كل هذا يسقط لو كانت لدينا رسالة نريد تبليغها إلى الدنيا، ودين عظيم نريد هداية الناس له.

لقد أثبت الرجل أنه أوعى بكثير ممن نقدوه وعابوا كلامه، واستهجنوا تصريحاته، لقد علمنا الرجل كيف نغتنم المواقف؟ وكيف نحلم؟ وكيف نتأمل؟ وكيف نعيش لدين لا نفكر إلا فيه؟ كيف نجذب الناس إليه؟ وكيف نغير أفهامهم عنه؟ مهما كان المصاب ومهما كان الحزن ومهما كان الجرح.! أجزم بشدة أن تصريحات الشيخ فريد لن تمر مرور الكرام، وأدرك بقوة أنها أعظم نصر للإسلام في القرن الحادي والعشرين ورغم فداحة المصاب إلا أن الرجل وفق في تصريحه ولا أراه إلا أنه إلهام من الله تعالى جرى على لسانه.

إن الدنيا كلها اليوم لا تتحدث عن مثالية الرجل، وسماحته الزاهية، بقدر ما تتحدث عن هذا الدين الذي جعل هذا الرجل بهذا الخلق وأنطقه بهذا الكلام.! الذي لا ينطق به إلا مواطن تتشرف كل الأوطان أن ينتسب إليها.. وقد رأيت النيوزلانديين يتسابقون إلى المساجد، يواسون المسلمين، ويتطلعون إلى هذه العقيدة التي كان منها هذا الرجل العظيم، ولعلها تكون بداية الهداية للكثيرين منهم.

وإذا كان التاريخ سيتذكر دوما حادثة نيوزلاندا، فإنه لن ينسى أبدا أن يقرن الحادثة بهذه التصريحات التي صفعت أعداء الإسلام على أقفيتهم، وهم في عز نشوتهم وسعادتهم وشماتتهم في قتلى المسلمين.. وجعلتهم يعضون أناملهم من الغيظ والضيق والندم على فعل هذه الجريمة الشنعاء، حتى لا يظهر الإسلام على حقيقته العظيمة في أعين المجتمعات التي نجحوا في خداعها وشوهوا صورته فيها.

يقول فريد أحمد:

- فقدت زوجتي، ولكني لا أكره القاتل!

- أحبه كإنسان، ولكني لا أستطيع أن ،ؤيده فيما قام به، وأظنه قد تعرض للألم في مرحلة ما بحياته، ولكنه لم يستطع أن يترجم هذا الألم بطريقة إيجابية.

- لذلك فقد سلك مسلكًا خاطئًا.

- يريد الإرهابيون من الناس أن تخاف، ويريدون التحريض بين فئات المجتمع.

- ربما كانوا يأملون بأنهم إذا استهدفوا بعض المسلمين،

فإن المسلمين سوف يثأرون، ولكننا لن نسمح بذلك أن يحدث.

- لن نسمح لأنفسنا بالشعور بالكراهية تجاه الآخرين، لمجرد أن بعض الإرهابيين يهاجموننا.

- أنا لا أحمل أية ضغينة ضده، أنا سامحته وأدعو له بالهداية، وربما يومًا ما سيهتدي وينجو!.

وكان فريد وزوجه قد هاجرا إلى نيوزلاندا من بنغلاديش في تسعينات القرن الماضي وتبلغ حسنا ٤٤ سنة بينما زوجها ٥٩ عاما، وقد أصيب بحادث سير عام ٩٨ جعله قعيدا ولديهما ابنه واحدة، وحاولت الزوجة أن تنقذه لكن الطلقات الغادرة أصابتها لتسقط شهيدة في أطهر بقاع الأرض، وكانت الحادثة وكانت المأساة، التي تسببت في هذه التصريحات الغالية الثمينة، التي لو بذل المسلمون جهدهم الجهيد ليحققوا ما حققته من نتائج، فلن يجدوا إلى ذلك سبيلا.!

معركة الذاتية المصرية

أنا واحد من الذين يؤمنون بأن الوطن هو الدين والعقيدة وليس الأرض، كما أنني واحد ممن الذين يؤمنون بأن حب الوطن من مرامي الدين والدفاع عنه جهاد في مادة الشريعة.

ولعل النقطة الثانية تقطع الطريق على الذين يتخذون من كلامي سقطة واعترافا بكره الوطن والتنكر له على حساب أمور أخرى.

هناك أناس لا يتصورون هذه الحقيقة حينما نقول لهم: إن الدين هو الوطن، ولا يستطيعون الفهم بأن من يؤمن بهذا المعتقد يكون من أشد من يصون وطنه ويحبه، ولكن هكذا عقيدة

المسلم، التي تنظر للإسلام على أنه النجاة في هذه الدنيا من كل ما يردي بالإنسان في حياته.. وأن حفظ هذا الدين يحفظ على صاحبه كل شيء وطنه ونفسه وحياته وكرامته وعزته.

لقد ظهرت دعوات في القديم والحديث، تستغل جهل كثير من المصريين أو قل تستغل عاطفة المصريين، وبدأت توجهها لحرب الدين بصورة مواربة خادعة، حينما يدعون للاستقلال بحضارة هذا الشعب التي هي الفرعونية، على حساب أي حضارة، وتعظيم لغته التي هي العامية على أي لغة، ولو كانت لغة القرآن، وتعظيم استقلاليتها في الحكم حتى ولو كانت ضد الخلافة الجامعة لكيان المسلمين، دعوات كلها تُشعر المصري بذاتيته وقوته وتخلق فيه الحماسة لكينونته، وما هي إلا وهم كبير، لأنها في المقام الأول ستقضي على دينه، وتُضعف هويته، وتَمحي انتماءه، ومن ثم تذهب بذاتيته التي يحلم بها.

وإذا كان هؤلاء يستغلون تلك عواطف الذات والكينونة عند المصري، فإننا في مواجهتهم نستخدم عاطفة الدين، لترد هذا الزيف وتقف في وجه محاولات تمريره للضحك على العقول.. ومن هنا انطلق دعاة العامية؟ التي تعني بكل بساطة بتر الصلة بلغة القرآن، وقطع المسلم عن تراثه وحضارته وهويته، وليس لها معنى آخر إلا تحقيق هذا الغرض، كما أنها من أكبر العوامل لاحتلال الحضارة الغربية محل الحضارة العربية الإسلامية والتي نكون بفقد لغتها قد انفصلت عن تقدير عقولنا لها.

إن تقدير حضارة الفراعنة على حساب حضارة مصر الإسلامية، لهو انتكاسة كبيرة في العقل والفكر والانتماء، ولعلنا نفخر بالحضارة الفرعونية ونعتز بما كان لها من شموخ وتقدم وزهو جعل مصر من أهم وأكثر الشعوب التي لها أصل وذاكرة وجذور راسخة في التاريخ.!

لكن حينما ننصب من هذه الحضارة بديلا عن الإسلام وحضارته، فلا يسعنا إلا أن نقول متسائلين: ما الحضارة الفرعونية بجانب الحضارة الإسلامية؟ وماذا خدمت الإنسانية ؟ وماذا قدمت للحياة والبشرية كما قدمت حضارة المسلمين؟! اللهم إلا تقديم الفراعنة لعجيبة من عجائب الدنيا السبع، وهي على قدر ما فيها من مظاهر الشموخ، ففيها من

مظاهر الذل الذي يلوث تاريخ الفراعنة، ويسمه بامتهان الإنسان، حينما أقاموها بالسخرة والسياط وإذلال المصريين.!

وأذكر مرة أن حاورت أحدهم حول وثنية الفراعنة، والاعتزاز بالإسلام الذي أقامنا على التوحيد، فما كان من رده إلا أن قال: لقد كانت المرأة لدى الفراعنة ملكة، في الوقت الذي كان العرب يؤدونها فيه، ولا أعلم هل فهم من كلامي أنني أعظم الجاهلية وأبديها على الحضارة الفرعونية، أم أنني أتحدث عن الإسلام الذي شع نوره طباق الأرض.

ولكن هكذا دعاة الانسلاخ من الدين، دائمًا ما يفترون ويهرفون بما لا يدركون.!

ولعمري هل تكون كرامة المرأة وتقرير حقوقها حينما تصير ملكة؟ إن حديث الإسلام عن تكريم المرأة كبير كبير وأعمق بكثير من هذه الشكليات.

ولعلي الآن أذكر حكمة خالدة وشهادة آثرة فأقول: إن من أعظم ما يميز عبقرية المصريين ويدلل على ذكائهم الشديد هو إقبالهم السريع للدخول في هذا الدين والانضواء تحت لوائه، قانعين مختارين غير مكرهين، وكيف لا يقبلون وقد رأوا من عدالة وسمو الفاتحين ما أدهشهم وأخذ لبهم.. ومن عجب أن من ينادي بالرجوع للفرعونية يتهم من ينادون بالرجوع للإسلام بأنه رجعية وتخلف ودعوة للوراء.؟

ولكن كيف يفسر إذن دعواه والفراعنة كانوا قبل الإسلام بآماد طويلة؟! أهي انطلاق للأمام ؟ أم ساعتها يقولون: رجوع للأصالة ؟!

جراثيم اللحية!

كتب صديقنا الاديب المستنير الذي يقيم في أوروبا ونكن له كل احترام وتقدير، لتفكيره العقلاني الذي يحرص عليه دوما، وإيمانه المستميت أن الأمة العربية، أو بتعبير أدق الأمة الإسلامية تعاني تخلفا عميقا في الحياة والتفكير.

وكثيرا ما يلمح أن أكثر وأبلغ آثار هذا التخلف إنما ينبع من تعاليم دينية، يراها هو عادات متخلفة، أو أمور كهنوتية لم ينص عليها دين بقدر ما هي اختراعات بشرية.!

وبهذا المنهج يوغل صديقنا الراقي في الخوض في أمور تحتاج قبل الهجوم عليها والتنكر لها، إلى فهم ودراسة وتأمل واستبيان.. لكنني أحيانا أراه يرفض أي محاولة للحوار فيها، لإيمانه الكبير أنها تخلف ورجعية.

وكان آخر ما كتبه قوله نقلا عن دراسة سويسرية :

لحية الرجل تحوي جراثيم أكثر من فراء الكلاب.

ولعلي هنا لا ارد على صاحبنا أو أغضب عليه أو أسئ بلفظ يخدش شخصه الكريم.. لأن شيوخنا علمونا أن معركة الداعية ليست مع المسئ وإنما مع السيئة استنادا لقوله تعالى: ادفع بالتي هي أحسن السيئة... ولم يقل الله تعالى ادفع بالتي هي أحسن المسيء..!

والحق أن الرجل لم يأت في كلامه بما يشير التهجم على الإسلام، ولم يأت على قوله لفظة تهين الدين، ولكن الإشارة تغني عن العبارة، والتلميح يغني عن التصريح..

وعليه أحب هنا أن أعرض بعض الآراء التي ناقشت نقله وكانت كلها على مستوى عال من الفهم والمعرفة والتفكير الراجح.. وهي كما يلي:

١-اللحي التي يتغلغلها الوضوء لا ينطبق عليها هذه الدراسة لاكن هذه الدراسة تنطبق عليهم هم.

٢-لا.. الدراسة تنطبق فقط علي المعفن اللي يهمل لحيته بلا تنظيف او رعاية.. ولكن يبقى شيء مهم وهو هل تستطيع دراسة جديدة ان تظهر لنا هذا النتن مع لحية يهذبها صاحبها ويعتني بها؟

كما ان الكثيرين يربون لحاهم من قديم فما وجدناهم يشتكون او يعانون من جراثيم أو عفونة.

٣-وهل ينطبق هذه الدراسة على القساوسة النصارى وحاخامات اليهود ولا على المسلمين فقط لأنهم في فترة ضعف.

٤-وايه الفرق بين شعر اللحية وشعر الرأس لو تم نظافتهم.
٥-لان لحاهم مليئة بالخمور فمن باب أولي أن تجتمع فيها الجراثيم
هلا كشفت لنا عن آباطهم أو عانتهم
أي دراسة ان فيها فئران أو صراصير
لأنهم لا يغتسلون ولا يتطهرون
أما نحن المسلمين أتحدي أي دارس أن يستخرج ميكروب واحد عند المسلمين
أنسينا العالم الذي أجري دراسة علي عفة الارحام فلم يجدها الا عند المسلمين واكتشف أن أولاده ليسوا من صلبه مما دعاه الي هدي الاسلام، يا سيدي إذا كنت لا تعلم أن الاسلام أمر اتباعه ممن كانت لهم لحي أن يخللها بالماء عند كل وضوء وامرنا أن نطيها بالطيب هكذا فعل النبي فلا يبقي فيها جرثومه ولا يبقي منا رائحة إلا ما كان طيبا، وان كان امرا شخصيا فأنصح معتقده ان يتوب الي الله لإهانته الأنبياء ورميه النصي القرآني
قال الله.... لا تأخذ بلحيتي ولا براسي.... ومن كان لا يعلم فليكفه السؤال.
٦-الحمد لله ان مثل هذه الدراسات وما يأتي بعدها من دراسات لا يمت لإسلامنا الجميل بصلة ... لأن رسولنا الكريم امرنا بتهذيب شعر اللحية والعناية بمظهرها وهذا داخل في أمر النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ (من كان له شعر فليكرمه) كما أن الوضوء لدى المسلمين والنظافة المستمرة تمنع كل تلك السلبيات الموجودة لدى الغربيين .
هذه بعض التعليقات الواردة.. والتي وضعت الفارق بين حال وحال، ودين جعل النظافة من مظاهره وتعاليمه وعادة يهمل معها صاحبها نفسه ويترك الجراثيم تسوايه بالكلاب.

القوة الروحية

أتذكر في عهد الرئيس مبارك حينما افتتح مشروع توشكي، الذي قالوا وقتها: إنه منقذ مصر والسبيل لدخولها عالم الأقوياء، وكان وقتها يجلس صديقي بجواري ونحن نشاهد افتتاح

الرئيس للمشروع، وتطلعنا للشاشة فرأينا بعض الفنانين والممثلين في صحبة الرئيس ووزرائه، فقال صاحبي وقتها: ألم يكن أولى لهذا الرجل أن يصحب شيخ الأزهر أو وزير الأوقاف، بدلا من هؤلاء المهرجين ويقول له: تقدم يا مولانا لكي تحل البركة على هذا العم.! ولكن قليل من الناس من يؤمنون ببركة الدين، وإزكائه لكثير من مظاهر حياتنا.! لكننا اليوم نصحح الأفهام ونؤكد لها أن القوة الدينية والروحية ضرورة ملحة لكل بلد ونظام ودولة ووطن، حيث تشكل أهم العناصر الكبرى التي تحفظ بقاءه وتنمي وجوده.

والقوة العسكرية وحدها لا تغني إذا لم يتمتع الجيش بقوة إيمان ويقين وروح كبرى تقف به أمام أعتى الجيوش وأكبر العتاد.. وهو السر الذي أدركه كبار القادة في أمتنا فعنوا به وأنموه وحافظوا عليه.

والحق أن وصية أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه في هذا الميدان، تدرس وتؤرخ له، فقد كانت وصيته لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما ومن معه من الأجناد في فتح القادسية: (أما بعد : فإني آمرك و من معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة في الحرب، و آمرك و من معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، و إنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله...إلخ"

ويذكر أن صلاح الدين الأيوبي كان يتفقد خيام الجنود ليلاً فإذا مر على خيمة وسمع الجنود يضحكون يقول: من هنا تأتي الهزيمة،

وإذا مر على خيمة وسمع الجنود يقرأون القرآن يقول: من هنا يأتي النصر.!

وفي زمن الخديوي إسماعيل وتحديدًا في حرب الحبشة، فقد أمر علماء الأزهر أن يقرؤوا البخاري حتى تحل البركة على الجيش ولكنه هزم، فثارت ثائرته وجمع العلماء ليلقي عليهم سبب الهزيمة وقال لهم: إما أن هذا الذي تقرؤونه ليس (صحيح البخاري) أو أنكم لستم (العلماء) الذين نعدهم من (السلف الصالح) فإن الله لم يدفع بكم ولا بتلاوتكم شيئا؟! فوجم العلماء لذلك، وابتدره شيخ من آخر الصف يقول له: منك يا إسماعيل، فإنا روينا عن

النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو ليُسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يُستجاب لكم)

والحق أننا رغم معرفتنا للسبب الأكيد للهزيمة، إلا أنني أكبر وأثمن خطوة الخديوي وفهمه وإيمانه بالقوة الروحية التي دعا إليها العلماء لتكون وقودا من البركة ينزل على جيشه المحارب.. وفي الزمن الماضي في أيام الوزير نظام الملك الذي عرف عنه أنه كان يحب العلم والعلماء ويهوى مجالس المحدثين والفقهاء، فقد روى الطرطوشي في كتابه سراج الملوك أن بعض الوشاة وشوا به عند السلطان ملك شاه ليوغروا عليه صدره، وقالوا: إن هذا المال الوفير الذي يصرف على الفقهاء والعلماء أَلى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ويضمها إلى ملكه! وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشي، فاستدعى وزيره نظام الملك، فقال له: فبكى نظام الملك وقال: يا بني أنا شيخ أعجمي لو نودي علي فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير، وأنت غلام تركي لو نودي عليك عساك تحفظ ثلاثين ديناراً وأنت مشتغل بلذاتك ومنهمك في شهواتك، وأكثر ما يصعد إلى الله معاصيك دون طاعتك، وجيوشك الذين تعدهم للنوائب إذا احتشدوا كافحوا عنك بسيوف طولها ذراعان وقوس لا ينتهي مدى مرماه ثلثمائة ذراع، وهم مع ذلك مستغرقون في المعاصي والخمور والملاهي والمزمار والطنبور.

وأنا أقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل إذا نامت جيوشك ليلاً قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفاً بين يدي ربهم، فأرسلوا دموعهم وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدوا إلى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك فأنت وجيوشك في خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركتهم تمطرون وترزقون، تخرق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء والتضرع. فبكى أبو الفتح الملك بكاء شديداً ثم قال: يا أبت شاباش يا أبت شاباش أكثر لي من هذا الجيش!

وسئل أحد الحكماء يوما عن أهم مكونات الأمة فأجاب: القيم والقوت والجيش، فلما سئل: وإذا فرض على الأمة أن تتخلى عن واحد من هذه الثلاثة فعن أيها تستغني قال: عن الجيش! فقيل له وإذا فرض عليها أن تستغني عن واحد من الاثنين قال: عن القوت! فلما أبدى

السائل دهشته قائلا: كيف تبقى أمة بلا جيش ولا قوت؟ فقال الحكيم ساعتها: إذا بقيت القيم راسخة، فعن طريقها سوف تحصل الأمة على أقواتها وتجيش جيوشها.!

هكذا يعرف الحكام البصيرون النجباء، وهكذا يدركون أهمية الدين وأهله في قيام الأمة ونهضتها وقوتها، وربما يقول أحدهم انظر للغرب، لقد ساد ونهض وتقدم يوم أن خاصم الدين والروح، ولكني هنا أقول للمريب ربما يكون كلامك صحيحا، ولكن انظر لهذه الدول التي تقدمت وهجرت الروح والدين، لقد صار تقدمها وبالا على الإنسانية، فاحتلت ودمرت وأفسدت وسرقت وأهانت حياة البشر.!

الألباني بين السلفية والمنار

ما أعجب ما نعيشه في هذا العالم من متناقضات تدهشنا كل يوم في كل مجالات الحياة.

نجد هذا في شيء حولنا إذا أمعنا النظر وتأملنا بدقة لنرى ما يبهرنا بل يحيرنا.. والان تلوح في مخيلتي تلك العجيبة من حال الإنسان والتي نوه الله تعالى بها وأشار إلى أنها غاية الحكمة ومناط الغيب الذي لا يعلمه غيره، فقد يأتيك الخير من عدوك وقد يأتيك الشر من صديقك.!! كان هذا المعنى هو الذي دار في رأسي وأنا أقرأ عن بداية النشأة والتكوين العلمي للشيخ الألباني وكيف انجر في باكر شبابه إلى هذا الطريق العلمي في ميدان السنة وتنقيح الأحاديث.. وسبحان الله كان شيئا عجيبا متناقضا مع حال مدرسته، فالألباني الذي هو محدث العصر ونابغة الدنيا في علم الحديث ،والذي يفترض أن يكون نبت مدرسة ابن تيمية وابن القيم ومنشأه ورضاعه على شيوخ المذهب الجنبلي، لم يكن إلا ثمرة من ثمار الإمام محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا، نعم محمد عبده الذي يعد العدو الأكبر في فكر السلفيين بعد الشيطان الرجيم، كان أستاذ الامام محمد رشيد رضا، ومن أنشأ له مجلة المنار، وأعانه عليها، وساعده على ذيوعها وانتشارها بما نشر فيها من فكر وعلم، واهتمام بالغ بأحوال المسلمين في كل مكان، لقد رأيت بعيني وسمعت بأذني كيف يحقد شباب السلفية على الامام محمد عبده ، وينعتونه بأبشع الاتهامات التي هو منها براء وينسبونه بالعداء لله

والرسول والكتاب والسنة والأمة كلها.. وما كان رحمه الله إلا مجددا مستنيرا اصطدم بعقابيل الجهل التي شوشت عليه بظلامها وغبائها وشوهت صورته إلى اليوم في عقول كثير من الأغرار ، الذين وقفوا موقفا عدائيا من العقل والحق.

كان الألباني رحمه الله، في بداية حياته وفوعة شبابه، يطالع القصص العربية كالظاهر وعنترة والقصص البوليسية المترجمة كأرسين لوبين وغيرها، ووجد في نفسه ميلا للقراءة في الكتب التاريخية، وذات يوم وعند باعة الكتب المعروضة، لمح جزءا من مجلة المنار فاطلع عليه ووقعت عينه على بحث قديم للسيد رشيد رضا يصف فيه كتاب إحياء علوم الدين ويتحدث عن محاسنه ومآخذه عليه من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.. وذكر رشيد أن العراقي وضع كتابا على الاحياء خرج فيه أحاديثه وميز بين صحيحها وضعيفها، وشعر الألباني بجاذبية في نفسه دفعته أكثر ليطالع كلام العراقي، فاستهواه التخريج وشرع في نسخه، بدأ يكتب تعليقا عليه يستوضح فيه ما خفي عليه من ألفاظ، وبدأ يستعين بمؤلفات أخرى من كتب الحديث واللغة تعينه على فهم ما لم يستوعبه، وهو ما نفعه كثيرا.!

كان الالباني يتعجب من لطف الله به وشعوره أن الله تعالى ينقله خطوة خطوة، ولكنها كانت البداية التي أمدته فيما بعد بمادة غزيرة، صنعت هذا النشاط العلمي العظيم في ميدان السنة.

كان الألباني وقتها دون العشرين سنة، ولكنه رغم ما وصل إليه كان يشهد بالفضل دوما للمنار وشيخها الذي وجهه هذا التوجه، وكان يقول: مجلة المنار هي التي فتحت لي الطريق للاشتغال بعلم الحديث، ويقول: إنني بفضل الله بما أنا عليه من الاتجاه للسلفية أولا وإلى علم الحديث ثانيًا، يعود الفضل فيه إلى السيد رشيد رضا عن طريق مجلته المنار.

اللهم العن هؤلاء

حينما تدعو على ظالم أو فاجر أو طاغية، تجد من الناس من يقف في وجهك، ويعترض دعاءك، ويظهر لك سماحته ورقته ولينه ورفقه، ويشعرك أنك سلكت طريقا خطأ لا يصح

أن يصدر من قلمك أو لسانك، ويقول لك: يا أخي ادع له بدلا من الدعاء عليه؟! لا تلعن أحدا وليكن لسانك عفا بمكارم الأخلاق! وانا هنا أتساءل متعجبًا: ما علاقة الأخلاق بالموضوع؟ ولماذا لا ادع عليه، وهو يستحق الدعاء عليه بما قدم من جور وظلم وفجور؟

منذ أيام كنت أقرأ قول الله تعالى: (وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) يونس: ١٠

أخذت أتأمل المعنى المقصود، وكان لابد من الذهاب لكتب التفاسير التي وضعها أعلام الإسلام، فوجدت فيها ما يلي: قوله تعالى: { رَبّنَا اِطْمِسْ عَلَى أَمْوَالهمْ } دعاء على الظالمين الكافرين أن يطمس الله أَمْوَالهمْ، فَصَارَتْ حِجَارَة ذَهَبهُمْ وَدَرَاهِمهُمْ وَعَدَسهمْ وَكُلّ شَيْء، وأما قوله تعالى: (واشدد على قلوبهم) وهو ما كان يعنينني التركيز عليه واستجلاء معناه، أي واطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح بالإيمان.. وتأملت وقتها كيف كان جبريل يأتي بالطين من قاع البحر ويضعه في فم فرعون خشية أن ينطق بكلمة الايمان فيعفو الله عنه.

وهنا قلت: لماذا لم يدع موسى عليه السلام لفرعون فقال مثلا كما يطالب البعض: اللهم اهديه؟ ولعل أحدهم يأتي في عقله وتفكيره، ما كان من أمر النبي صلى الله عليه وسلم في الطائف ودعائه لقومه بالهداية؟ ولكن لعل الأمر يختلف في حجم الطغيان وحجم الكفران، فلم يكن منهم من ادعى لنفسه الالوهية كفرعون، ولم يسرف هؤلاء في الدماء والاستعباد كما أسرف فرعون، كما أنها تختلف من حال لحال، ومن عزيمة إلى أخرى.

وربما تعود للمعرفة القوية بحال الظالم المتجبر، إن كان ميؤوس من هدايته وإنابته لربه، وهو ما بينه ابن عباس في تفسيره للآية المباركة بقوله: (أي اطبع عليها {فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم} وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضباً للهّ ولدينه على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء.) ثم ماذا لو أنني لعنت الاشقياء الفجرة المجرمين الذين يؤذون الناس ويبركون هلاكهم؟ ماذا بي من ضير أو ضرر لو أنني صببت عليهم سخطي وغضبي ولعناتي، وهو أمر ثابت في السنة والقرآن وحياة النبي صلى

الله عليه، وسلم، إن الناس يريدون من الخلوق المتأدب، أن لا ينتصر لنفسه حتى بمجرد الدعاء، الذي لا يدخل في باب السب والطعن، وإنما يدخل في باب المناجاة واللجوء للكريم المنان المنتقم الجبار.. لا حرج يا أخي أن تدعو على ظالم بالهلاك أو فاسق بالفناء، حتى يزيحه الله من الوجود، فتنجو الدنيا من جرمه وفساده، ولا حرج أن تدع على الفجرة بحجب الإيمان والهداية، لماذا يريد الناس منا دومًا أن نهمل حقوقنا ونفرط في مشاعرنا، ونكون كما قال عيسى عليه السلام: (من ضربك على خدك الأيمن فلتعطه خدك الأيسر).

ألا إن من يطيق ذلك فهو حر في نفسه وبها ونعمت، لكن لا تجعلوها هي عين الاخلاق والأساس الذي يكون عليه المسلم، وتُنكروا على من يدعو على فاجر ظالم أن يأخذه الله..

تأملوا معي هذا الحديث الفريد، الذي ذكره أبو نعيم في دلائل النبوة وغيره..

عن أشياخ من قومه، قالوا: "أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بسوق عكاظ، فقال: ممن القوم؟ قلنا: من بني عامر بن صعصعة، قال: من أي بني عامر؟ قلنا: بنو كعب بن ربيعة. قال : وكيف المنعة فيكم ؟ قلنا : لا يرام ما قبلنا ولا يصطلى بنارنا ، قال : فقال لهم : إني رسول الله ، فإن أتيتكم تمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولم أكره أحدا منكم على شيء ؟ قالوا : ومن أي قريش أنت ؟ قال : من بني عبد المطلب . قالوا : فأين أنت من بني عبد مناف ؟ قال : هم أول من كذبني وطردني . قالوا : ولكنا لا نطردك ولا نؤمن بك ونمنعك حتى تبلغ رسالة ربك ، قال : فنزل إليهم القوم يتسوقون إذ أتاهم بجرة بن قيس القشيري ، فقال : من هذا الذي أراه عندكم أنكره ؟ قالوا : محمد بن عبد الله القرشي ، قال : ما لكم وله ؟ قالوا : زعم لنا أنه رسول الله يطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه ، قال : فماذا رددتم عليه ؟ قالوا : قلنا في الرحب والسعة ، نخرجك إلى بلادنا ونمنعك مما نمنع به أنفسنا ، قال بجرة : ما أعلم أحدا من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشر من شيء ترجعون به ، بدأتم لتنابذ الناس وترميكم العرب عن قوس واحد ، قومه أعلم به ، لو آنسوا منه خيرا لكانوا أسعد الناس به ، تعمدون إلى رهيق قوم قد طرده قومه وكذبوه ، فتؤوونه وتنصرونه ؟ فبئس الرأي رأيتم. ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : قم فالحق بقومك ، فوالله

لولا أنك عند قومي لضربت عنقك . قال : فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ناقته فركبها ، فغمز الخبيث بجرة شاكلتها ، فقمصت برسول الله صلى الله عليه وسلم فألقته ، وعند بني عامر يومئذ ضباعة بنت عامر بن قرط ، كانت من النسوة اللاتي أسلمن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، جاءت زائرة إلى بني عمها ، فقالت : يا آل عامر ولا عامر لي ، أيصنع هذا برسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم لا يمنعه أحد منكم ؟ فقام ثلاثة نفر من بني عمها إلى بجرة ، واثنان أعاناه ، فأخذ كل رجل منهم رجلا ، فجلد به الأرض ، ثم جلس على صدره ، ثم علوا وجوههم لطما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم بارك على هؤلاء والعن هؤلاء . قال : فأسلم الثلاثة الذين نصروه فقتلوا شهداء ، وهلك الآخرون لعنًا"

لقد لعن الرسول الكريم من آذوه وأوقعوه، ولم يقل اللهم اهدهم.. دعا على هؤلاء السفلة أن ينتقم الله منهم لما فعلوه به، فكان ما كان من عقاب الله لهم.. فهلا تركتمونا ندعو على المنحطين بلا تشكيك أو إنكار؟ ونترك لكم أخلاقكم السامية الحالمة؟!

حينما تُهان العقيدة

لا شك أن العقيدة التي فُطر عليها الإنسان غالية على نفسه، مهما كانت هذه العقيدة فاسدة أم صالحة، وهم أم حقيقة، سماوية أم أرضية، المهم أنها غالية في النفس عظيمة في القلب، ولا نبالغ إن قلنا: إن تقدير الإنسان لها يسوقه ليفديها بروحه ودمه وأعز ما يملك في هذه الحياة.

وإذا أردت أن تستفز شعبًا من الشعوب، أو تهين أمة من الأمم، فما عليك إلا أن تُعرِّض بعقيدتها، وتسخر من طقوسها، وساعتها تكون أنت أكبر أعدائها، وأبغض الناس في ضمائر أفرادها.. ولقد كان الاسكندر المقدوني قائدًا ذكيا، فإنه كلما دخل بلدًا تقرب إلى قلوب أهلها بعقيدتهم، وارتاد معابدهم، وأظهر لهم أنه على دينهم كما حدث في مصر، حينما فرح

به الكهنة ولقبوه ابن آمون الكبير، وكذلك فعل نابليون مستخفًا بالمصريين، حينما دخل عليهم غازيًا في حملته الآثمة، ووزع منشورات على القاهرة، وأخبر علماءها وأهلها أنه أسلم واعتنق الإسلام، وهو طاغية لا ملة له ولا دين ولا ضمير.

إن العقيدة هي التي جعلت سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يهجر وطنه وبلده؛ التي هي أحب بلاد الله إلى قلبه، ويؤثر عليها وطن العقيدة التي هي في النفس أغلى من الأوطان والأرواح.. وكذلك فعل أتباعه من الصحابة الكرام الذين تركوا أموالهم ودورهم وأهليهم وأسرهم، وضحوا بكل ما يملكون، وشدوا رحالهم إلى الوطن الجديد، وطن العقيدة التي كانت الرحلة إليه محفوفة بالمخاطر، والقتل والاغتيال والترصد من عيون قريش، لكنهم لم يبالوا بشيء من هذا وساروا مدفوعين إلى غايتهم ودولتهم الكبرى.

انظر للإنجليز حينما احتلوا الهند، ففي عام (١٨٥٧م) قامت ضدهم ثورة جامحة، وذكر المؤرخون: أن من أهم أسبابها، أن الانجليز كانوا يستهينون بعقائد الجنود الهندوس والمسلمين، حيث جلبوا خراطيش مدهونة بشحم الخنزير والبقر، وكان على الجنود أن يقطعوها بأسنانهم قبل استعمالها، ومعلوم أن لحم البقر يحرم أكله عند الهندوس كلحم الخنزير عند المسلمين، فكانت نتيجة ذلك أن وثب الجنود وعصوا أوامر القادة الانجليز في هذا الشأن، فأنزل الإنجليز بهؤلاء المتمردين عقابًا قاسيًا حيث حكموا على (٨٥) منهم بالسجن عشر سنوات.! وقام أحد المؤرخين الانجليز بنقل هذه المحاكمة فقال: "سيق خمسة وثمانين جنديًا إلى المحكمة العسكرية تحت مراقبة الحراس، وحكم عليهم بهذا الحكم الفظيع، ثم عريت أجسامهم من ملابسهم العسكرية، وكبلوا بالحديد، وكان منظرًا مؤلمًا تسيل له قلوب رفقائهم، إشفاقًا عليهم ورحمة بهم، وكان في المحكوم عليهم من قدم للإنجليز خدمات جليلة، وحارب في صفوفهم، ولقي الشدائد والأذى في سبيل مرضاتهم، وشكى جميع الأسرى إلى القائد سوء حالهم، وتذرعوا إليه بكل ما يمكن من الكلمات الرقيقة والدموع المنهمرة، حتى لا يبتليهم بهذا الذل والهوان، لكنه لم يصغ إليهم، فلما يئسوا من رؤسائهم شخصوا بأبصارهم إلى زملائهم قائلين: مالكم تشاهدون كل ما نحن فيه من

الذل والخزي وأنتم ساكتون؟! فوجدت هذه الكلمات سبيلا إلى قلوب أصحابهم، ونزلت عليهم كالصاعقة." وتضامن الجنود مع زملائهم المضطهدين وقاموا بثورة عارمة على الانجليز في معسكرات مدينة ميرت في ٩ مايو سنة (١٨٥٧م). وقامت الثورة لهذا السبب حينما استهان الانجليز بعقيدة الجنود، وأهانوا مقدساتهم.. وخرج الجنود الثائرون من معسكرات ميرت متوجهين إلى العاصمة دلهي يوم (١١) مايو وهم يقتلون ويدمرون، وتصدى لهم الجيش الإنجليزي قبل وصولهم للعاصمة، ولكنه فشل ومني بالهزيمة، ولم يبال الثائرون بمدافع الإنجليز وكانوا يصيحون: اقتلوا الانجليز حيث وجدتموهم، ولا تُبقوا منهم رجلا ولا امرأة ولا ولدًا.!"

وأمام ما قرأت عن هذه الغيرة الحامية على العقيدة من هؤلاء الهنود، أشعر بالخجل الكبير حينما أنظر الحاضر الذي نعيشه في مصر الآن، فعلى أرضها تُهان العقيدة كل يوم على يد الملاحدة والمتغربين والمجترئين على دين الله وقرآنه ونبيه وأحكامه وتعاليمه ورموزه، ولا ينتفض أحد، ولا يعترض معترض، ولا يشتكي شاك، ولا يثور ثائر، حتى صار دين الله كلأ مباحًا لكل ناعق حاقد أعمى عميل مدلس، فإلى الله المشتكى.

ثقافات غائبة

في حياتنا فقدنا كثيرا من الثقافات المهمة والضرورية، التي يحتاجها الانسان حتى يحقق السعادة في دنياه.. وهي ثقافات إنسانية تمثل عنوان الحضارة والرقي، فما أخذت بها أمة من الأمم إلا ارتقت وعلى كعبها، وتحقق سموها.. منها مثلا ثقافة الاختلاف، وثقافة النقد وتقبل الرأي الآخر، وثقافة المواطنة والمعايشة، وثقافة اغتنام الوقت، وثقافة القراءة، وثقافة الحرية، وثقافة الريجيم.

ومن أبرز هذه الثقافات التي تميزت بها أمتنا ولكنا تخلينا عنها وأهملناها بل عدها بعضنا عدوانا على الحرية الشخصية، هي ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو بتعبير آخر

ثقافة النصيحة، فما أن تنصح أحدهم لتجاوزه حدود الدين، حتى يتشنج عليك ويرفض نصيحتك، معلنا لك أن دينه بينه وبين ربه لا دخل لك به، وأنك بهذا تتجاوز حدودك حينما تعتدي على تصرفاته وحريته وتصوره لدينه.

افجر كما تشاء وافسق كما تشاء وفرط في طاعة ربك كما تشاء، لكن لا تزعم أن بينك وبين الله عمار لا يجب أن يتدخل فيه أحد، وهو فهم علماني مغلوط يخالف ما جعله الله تعالى عماد هذه الأمة التي قامت على معالم النصيحة، وعماد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنها كلمات لا يتقنها إلا المتفننون في الهروب، والشاعرون بالخزي والتقصير، وبدلا من أن يكونوا شجعانا يواجهون نقائصهم، إذا بهم يتوغلون في أمواج البجاحة، في محاولة غاشمة لكسر النصيحة، ووأد ثقافة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل خرجت على الناس فئات ضالة تنتسب زورا للدين وهي ترفع شعار: دع الملك للمالك، وهي قولة حق أريد بها باطل.

وأمام ثورة المتبجحين يمثل أمامنا قول الفاروق رضي الله عنه: رحم الله امرأ أهدى إلي عيوبي.. فهل دعونا لمن ينصحوننا ويجبرون نقائصنا كما فعل عمر، أم ترانا نهيج عليهم ونصيح، ونرفض نصائحهم باسم الحرية وأن الدين بين العبد وربه؟!

نعم إن الدين بين العبد وربه، ولكن بين العبد و ربه وكتابه وشرعة، ولا قيمة لك ولا ميزان إلا بما بينك وبين الله تعالى، مما أقامه الله لا مما جعلته أنت بهواك.. والإسلام هو الدين الوحيد الذي ظلم كثيرا، فكثير منهم يسعون لفهم الإسلام من عقولهم وأمزجتهم وأهوائهم، ويتصورونه دينا يتيما لقيطا لا جذور له ولا أصول، فمن أنعم عليه بتفسيره وتأويله من شطحات عقله فهو مشكور.

ألا إن هذا الإسلام لكي نفهمه وندرك معالمه، فإن له أصوله وركائزه التي قام عليها من الكتاب والسنة، وهما المصدرات اللذان لا يسمحان أن يقوم معهما في مهمة التشريع والتقنين شيئا من أوهام الناس وطموحاتهم.. ثم إياك أن تظن أن القلب والعواطف أثقل في ميزان هذا الدين من تعالم الشرع وحدود الدين، التي أنزلها الله تعالى وأقام عليها بنيان

دينه، يمكن لك أن تمنى نفسك بكثير من الأماني والتألي على الله، لكن إياك أن تزعم أن هذا من صلب الدين وكنه الشريعة، التي لا تقوم إلا على الامر والنهي.

من الذي أهان العمامة؟

سعيد أنا جدًا أن يخرج في الأزهر من يُمثل واجهة مشرفة لعلمائه ويعبر عنه أمثل تعبير فيتكلم باتزان وحكمة ويعرف ما يقال وما يقصد وما يراد منه وما يريده هو.

كان هذا هو الانطباع العام الذي قرأته لأحد كتاب جريدة الوطن تلك الجريدة التي تنتهج خط روز اليوسف في الاستهانة بالدين وشيوخه على يد الكتاب المتغربين المنفلتين، مما يجعلني أقر بأن ما نقرأه على صفحاتها من إشادة بعالم أزهري شيء مبهر وتطور كبير وإنجاز غير مسبوق.

الكاتب هو الأستاذ (حسين القاضي) أحد كتاب هذه الجريدة المعروفة، وقد جاء مقاله تحت عنوان "المفتي في ضيافة صالون حداد" الذي تديره الدكتورة آيات حسين حداد عضو مجلس النواب.. أقيم الصالون في رحاب مسجد عمرو بن العاص، ودار النقاش حول الفتوى ودورها في تحصين الأفكار، كان الكاتب معجبًا جدًا بالخطاب المتزن للمفتي الدكتور نظير عياد، ورأى من وجه نظره أن ما نطق به يمثل عقلا فريدًا يمكن أن يجسد أفضل صورة للعالم الأزهري.

ثم طرح نقطة مهمة حينما قرأتها وجدت في نفسي انفعالا كبيرًا ورغبة جامحة في التعليق والرد.

يقول الكاتب الألمعي: " وأول ما لفت نظري هو حرص فضيلة المفتي على الحضور في موعده، وسمته الجميل، وأسلوبه اللين، الذي يليق بالعلم والعلماء، وهذا يعطي انطباعا إيجابيا، في التأكيد على إعادة الثقة في المؤسسات الدينية، لا سيما أن الجماعات المتطرّفة تحاول هدم الثقة بين الناس وبين مرجعياتهم الدينية، وهي محاولات فاشلة".

ثم يقول: "وهو ما يدعونا لأن نكرر الدعوة إلى الحفاظ على مرجعية الإفتاء، لأن الحفاظ عليها نوع من الحفاظ على الوطن"

وهنا ومن هذه النقطة تحديدًا كان لابد لي من التعليق والحديث وتوجيه اللوم في وجهته الحقيقية لا الوهمية الزائغة، فنقول للكاتب المحترم: الجماعات الإرهابية لم تكن وحدها من هدمت مرجعيات الناس الدينية وعملت على تشويه صورتهم كما تقول، فمن قبلهم وكان أنجح منهم أثرًا هو الإعلام والدراما المصرية ومنذ عقود مضت، حينما كان الشيوعيون والملحدون يحتلون منصات التوجيه والإرشاد في بلادنا، فعملوا على إظهار شيوخ الدين وعلمائه بمظهر السخرية والاستهزاء.

ففي كل فيلم أو مسلسل يعرض تستبيح مشاهده عرض العلماء وتنال من شرف العمامة وتهين شموخها في الوحل، حتى صارت العمامة رمزا للمسخرة والهزأة لكل من يرتديها، وإذا لبسها العالم تبادر إلى ذهن العامة ممن يرونه في الشارع صورة الممثلين أمثال حسن مصطفى وعبد المنعم إبراهيم والذي تخصص ببراعة في ربط العمامة والزي الأزهري بأوضاع كوميدية ساخرة، استطاعت أن تسقط هيبة الزي والعلماء في أنظار المشاهدين.

وأنا أتساءل دومًا هل يمكن للمسيحيين أن يفعلوا ذلك بزي القسيس ويظهرونه بمظهر السخرية والاحتقار؟ إنني أرى منهم كل توقير واحترام إلى حد لم ينل علماءنا نصفه أو ربعه.!

كيف سمحنا للفسقة أن يهينوا الزي الأزهري في الأفلام الساقطة والمسلسلات الهابطة التافهة؟ كان الأجدر بالأزهر قديمًا أن تكون له وقفة حازمة ضد هذا الهزل الذي يمس شرف العمامة وكبرياءها.

بل انظر مؤخرا للمنحطين -الحوش- الذين تعمدوا إهانة الشيخ الشعراوي ومس مكانته في قلوب الجماهير، ونعته بأقبح الألفاظ والنعوت غيرة منهم وحسدا على الحب المتدفق الذي علق في قلوب الناس تجاه الشيخ.. ألا يلفت نظرك أيها الكاتب أن هذا أيضا هدم

للمرجعيات والرموز الدينية وذبح لمكانتهم العالية؟ ألا يستحق هؤلاء الهمل كلمة نقد منك؟!

ولكن دعك من الإعلام وغيره الآن، ولننظر أيها الكاتب المجيد للجريدة التي تكتب فيها هذه السطور الطيبة، انظر إليها وهي تضم أحقر الأقلام التي تناصب الدين العداء، ويمكن لها أن تسمع الرعد ولا تستمع إلى عالم دين، وتُسخِر مدادها ومقالات كتابها ليل نهار في الكيد للدين وعلمائه.. كان الأولى أن توجه اللوم لمثل تلك الجريدة، قبل أن توجهه للجماعات الإرهابية! في الحط من هيبة رجال الدين والمرجعيات.

كان الأولى أن توجه اللوم للإعلام المصري العريق الذي غذى أدمغة المصريين بصور السخرية والاستخفاف والاحتقار والاستهزاء بالشيوخ.

الجماعات الإرهابية لا تتحمل ثمن أو سدس إهانة الإعلام المصري للرموز الدينية، لكننا الآن بدأنا نفيق وندرك على قولك أن احترام الفتيا والمرجعيات الدينية نوع من الحفاظ على الوطن.. سيعد أنا جدا بهذا الكلام.

مفاهيم خاطئة

كان شيئا مثيرا ومحيرا من هذا الرجل المتعلم، والذي كان موظفا في التربية والتعليم بدرجة مدير عام، حينما وجدته يوما يتطهر للوضوء بطريقة خاطئة تفسد الوضوء والصلاة معا، لقد حاولت أن أشرح له وأبين خطورة الموقف، ولكنه كان يشيح عني بيده ويُعرض بعقله وفكره، انطلاقا من إيمانه القوي وعقيدته الراسخة، أن ربنا رب قلوب، وقال قولته: اضرب الفقهاء دول بالجزمة.!

والقولة لا شك قولة رجل جاهل أحمق، ولكني كنت آسفا على هذا الفهم المغلوط للدين والتساهل في تناول شعائره بهذا الجهل المفرط وللأسف من رجل متعلم.

حينما يتفشى الجهل ونسمح لعقولنا أن تظن أنها أكبر من العلم وأفهم من العلم، فإنها لاشك تضل كثيرا، وتبعد كثيرا عن جادة الحق والصواب، فلابد للإنسان لكي يكون فقيها في شيء بصيرا بأمره أن يتعلمه، فلا يمكن أن تكون طبيبًا أو مهندسا بعقلك وذكائك، ولكن لابد من العلم والتعلم والخبرة والتمرس والتصبر والفهم والتأمل.!

ولعل الدين تحديدًا من أبرز الأشياء التي تتجرأ عليه كثير من العقول، فتزعم فهمه وإدراك حقيقته دون دراسة وتمعن وتبصر وقراءة وفقه وفهم.. ومن هنا يكون الإفك والجهل والتغابي والخطأ..!

إن بعض الناس يقيس نفسه، ورضا ربه، و ربما مكانته من الجنة والنار، بسلامة نفسه وصفاء قلبه وعلاقته الحسنة الجميلة بالناس.. ولكن يؤسفني أن أقول لك: إن هذا مقياس خاطئ وميزان مختل، فما عند الله لا ينال إلا باتباع شرعه ودينه والتزام أوامره، فإن كنت أطيب الناس وأبر الناس وأفضل الناس، فإن هذه الأفضلية تظل مبتورة لا قيمة لها ما دمت مُفرطا في تعاليم الدين غير آخذ بنواصيها.. وإن هذه الأفضلية لن يسألك الله عنها أو ينظر إليها، ما دمت مُعرضا عن الثوابت والأصول.. وإن هذه الأفضلية لا تنفع دينك وربك في شيء، وإنما تنفع الناس وحدهم لأنك جيد معهم، أما ربك فلست جيدًا معه، لأنك لا تطيع أمره.

إن الله تعالى أمر ببر الناس والإحسان إليهم وجعله خلق عظيم ومسلك قويم في الدين، لكنه جزء من دين كبير لا يقوم إلا بأصول وقيم وأخلاق أخرى إن أهملتها لا يقوم لديك شيء.

ونتعجب اليوم ممن جعلوا حب الناس رسالتهم الخالدة، وهي تعليم وخلق من أخلاق الإسلام ولكنه ليس على حساب الرسالة الكبرى والغاية المُثلى من عبادة الله، فنرى رجلا لا يُصلي ويؤسس جمعية خيرية تسعى لخدمة الفقراء أو تطبيب المرضى، ونرى رجلا لا يصوم ومن جهة أخرى يُحب الناس ويملأ حياتهم بالفكاهة والالفة والطيبة والنقاء، ونرى امرأة لا ترتدي الحجاب مثلا ثم تقول: أنا جيدة مع الناس، وأعرض عن الغيبة والنمية، ولا أعامل أحدًا بسوء.

أدرك جيدا أن هذا الخلل في المفاهيم، والفهم الغريب للتعامل مع الله ودينه وشرعه، وتُبصر مقام الرضا وطريق الجنة والنار، إنما يرجع للجهل السحيق الذي اجتاح حياتنا وملأ عقولنا تجاه ديننا، فما صرنا نفهم أي شيء من قِيمه ومُراده إلا بسطحية وجهالة وتفكير معيب...

إن بعضهم يقول لك: (ربنا رب قلوب)

وهي مصطلح مقبول في الدين، يدعو إلى تطهير القلب، وسمو النفس، وأن الله تعالى يحب القلب النقي الصافي النظيف، ولكنها في نفس الوقت، دعوة خطيرة حينما يجعل منها الجاهلون غاية الدين، ورسالته الكبرى، والمصير الذي يرنو إليه، ويحاولون تصوير الأمر لمن حولهم: بأن طهارة القلب هي التكليف الأعظم الذي أمر الله به، وأنك لو حققته ما ضرك بعده شيء، وربما سقطت عنك التكاليف كلها.. نعم.. فما دام قلبك جميلا محبًا للناس طاهرًا من الأحقاد، فأنت والجنة على طريق موعود.. ومن قديم.. وفي هذا الإطار، تحدثت مرة عن الفرق بين رضاء الله والراحة النفسية! وذكرت حال قوم يشعرون في أعماق أنفسهم براحة البال وهدوء النفس، ولكن الشيطان يُلبس عليهم حين يُوهمهم أن هذه الراحة هي رضاء الله عليهم، ونعمة حبه لهم، وحينما تنظر في حالهم، تجدهم لا يصلون ولا يعرفون من تعاليم الدين أي شيء!

فكيف إذن يكوم هذا التفسير الأعوج والقسمة الضيزى؟ ربما تكون ميسور المال، أو لديك فلسفة القناعة، التي تؤهلك أن تعيش بعيدًا عن المشكلات التي تعصف يوميًا بحياة الناس، ربما هذا أو ذاك، لكن ليس من حقك ولا يجوز أن يكون من فهمك أن هذا رضا الله، لأن رضا الله تعالى لا ينال إلا بشرعة، ونفس المشكلة حينما قامت منذ عام أو أكثر، ضجة كبيرة حول طبيب مشهور، على غير ملة الإسلام، يفعل الخير ويقدم الاحسان للناس، وقام الجدل: هل سيدخل الجنة أم النار؟ وهو أمر لا ننزلق للحديث إليه، ولكنه أظهر فيما أظهر.. جهلا سحيقا بفهم العقيدة وأصولها وأحكامها، فرأينا من المسلمين من يخلط الحابل بالنابل.. ومن يجزم بأن من على غير الإسلام مكتوب له الجنة لو كان من الخيرين.

لقد كان (عبد الله بن جدعان) من المشركين، وفي ذات الوقت كان رجلا خيرا محبًا للبر، منفقا للمال مطعما للفقراء منقذا لذوي الحاجات، فلما مات سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، في أمرة متعجبة أن يكون مثله في النار!

فقال لها: يا عائشة إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.!

"لو كانت المغفرة ودخول الجنه بالنية لكان اولي الناس بها ابو طالب عم النبي الذى لم يشفع له حبه للنبي ومساندته له طوال حياته" ربما تتشنج متهورة بعض العقول التي تحب الجنوح إلى التهمة، ويدعون زيفا أننا بهذا الكلام نتخيل أنفسنا نملك صكوك الغفران وحق إدخال الجنة والنار، ونزعم أن لدينا سلطة الحساب والعقاب، وهذا أيضًا من جملة الجهل والبلاء، فإننا لا نفعل شيئا إلا أننا نتلوا العلم الذي أنزله الله، وعلمه نبيه، وتناقله المسلمون بعقولهم وأفهامهم.

أي إيمان هذا؟

أي إيمان هذا الذي يدفعك أن تنفق ٥٠.٠٠٠ من الجنيهات أو أكثر لأداء مناسك العمرة وتكرارها كل عام، بينما تترك خلفك جيوشًا من الفقراء المسحوقين، والمرضى المعذبين، والعرايا المشردين، والجائعين المحتاجين؟

حدثتني أخت فاضلة أنها تستعد لأداء العمرة هذا العام، بعدما ادتها العام الماضي لأنها تشعر براحة نفسية فائقة، وقرب من الله عظيم وهي في بيته الحرام، فذكرت لها أن القُرب الحقيقي من الله في سد جوع الفقير وإعانة المحتاج، وشفاء المريض الذي يقتله الألم، وفك كرب كل مهموم محزون أذلته الفاقة.. أعادت الحديث عن راحتها هي، وإذا كانت تحرص على راحة الناس بالإنفاق عليهم، فأين راحتها هي؟ قلت لها: هكذا المسلم لا يرى نفسه إلا في سعادة الآخرين، وإن راحته الحقيقية سيجدها في بركة ويقين يقذفهما الله في قلبه حينما يكون في عون أخيه، لكنني كنت أكثر صراحة معها بأن حديثها تفوح منه الأنانية المُفرطة، إذا دعتها

الحاجة أن تفكر في سعادتها والعالم حولها مقهور بهذه الأزمات.. قالت: ومن أدراك أنني لا أتصدق؟ قلت لها: وهل تساوي بضع مئات تنفقينها في سبيل الله، أمام عشرات الألوف في العمرة، والله تعالى يُرضيه عنك أن تنفقيها عليهم بدلًا من أن تزحفي إلى بيته الحرام.. إن الأكباد الجائعة أولى بكل ما نملك وما نستطيع، إذ كيف يعقل أن يجتاح الفقر حياة الناس، ثم أذهب لأنفق هذا الثمن الباهظ في رحلة إلى الكعبة؟

عن ابن عمر قال: رأيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطوف بالكعبة، ويقول:

"ما أطيبك، وأطيب ريحك! ما أعظمك، وأعظم حرمتك! والذي نفس محمد بيده، لحُرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله، ودمه". أخرجه ابن ماجه وصححه الألباني

هذا هو الفهم الأمثل في الإسلام وفي وجدان المتأملين العقلاء من أهله، أما أن أسعى وراء أوهام نفسية، وخيالات وجدانية، وأترك الأولوية التي يحث عليها ديني ويأمرني بها ربي، فهذا نوع من التهريج، أو هو من تلبيس إبليس.

وقد كتبنا مرارًا وتكرارًا عن الخدعة الكبرى التي تختلط على كثير من الناس، حينما يتصورون أن الراحة النفسية التي تغمرهم، هي رضاء الله المنشود.. فرق كبير بين رضاء الله والراحة النفسية، التي يمكن حتى أن تعتري أي فاسق أو فاجر فيتصور أن الله تعالى معه ويؤيده وينصره، فيوغل في عقوقه وكفرانه بسبب وهم خَدَّاع.. ودعني أقولها صراحة: إن أي مسلم ينفق مثل هذه المبالغ كل عام للعمرة أو الحج هو مسلم لا إحساس ولا شعور لديه، وليس هو المسلم الذي يسعى فعلًا إلى طاعة ربه ورضاه بالشكل الأمثل المطلوب.

انظر لهذه الكلمات الخطيرة التي نطق بها رسول الله-صلى الله عليه وسلم-

ليس منا.. من بات شبعان وجاره جائع.

ليس منا.. من لم يهتم بأمر المسلمين.

نعم لست منهم.. في الوقت الذي تتأهب أنت للرحلة الإيمانية لتكون منهم.

بقيت نقطة مهمة وهي أن بعضهم يقول لي مستعليا: وجه هذا الكلام لأهل اللهو والفجور لا أهل الطاعات، وجهه لمن ينفق الملايين في المصايف ويقيم السهرات والحفلات والليالي

الملاح ورحلات السياحة والترفيه، وأنا هنا لا أعلم مال هؤلاء الناس بكلامي هؤلاء أغلبهم لا يهمهم دين أو إنفاق، والكلام على اعتبار موضوعه يعتبر موجه لهم في المقام الأول، فإذا كان هذا حديثنا عن أمور الطاعة فكيف بالأمور الأخرى ليكون تأخيرها والامتناع عنها من أجل الفقراء أشد و آكد.. وهو أمر مفهوم بدهيًا لا حاجة للتنبيه عليه لمن احتج به وظن أنه قد أتى بالبرهان الساطع والسر الباتع.

قوم آخرون يحتجون بأن النبي أوصى بتتابع العمرة إلى العمرة لأن فضلها كذا وكذا، وأنا لا أعلم كيف يسير المسلم منفصلا عن واقعه وهو يردد الأحاديث النبوية، فذه الاحاديث في فضل تكرار العمرة تقال حينما نكون في حالة رخاء ولا ننفق الألوف المؤلفة في مثل هذا العمل، أنا حينما يكون الانفاق عليها بمثل هذا السعار وهذا الجنون، فهنا يختلف الأمر ويختلف التقويم.. وتعاد الحسابات مرة أخرى ويصير التوجه للعمرة على حساب الإنسان هدرا لحياة هذا الإنسان ... تكفيك عمرة واحدة تقبل بها على ربك، وإذا أحببت تجديد الرضا الإلهي فتوجه إلى الفقراء والمساكين.

الأكباد الجائعة

أوضاع البشر في كثير من الأمم لا تحتمل أن يعبث المرء بإنسانيتهم، وأعظم العبث بها حينما يكون الشعب كادحا متعبا منهكا مهترئا، والأمة مقهورة من الجوع والمرض والفقر، يصرعها الشقاء وتؤرقها التعاسة، ثم نرى الحاكمين مثلا ينفقون أموالها في غير مصالح الشعب الضائع الجائع، ويسرفون في الترف والزينة، والأمور التي لا تسمن ولا تغني من جوع.. لاشك أن هذا من مساخر الزمن، وقسوة البشر، وظلم الانسان لأخيه الانسان.

من قديم ونحن نتحدث ولا نتوقف عن أهمية الانسان، وأن الادمي بنيان الرب ملعون من هدمة، والشروع في تنظيم مظاهر الترف بينما الشعب غارق في الفقر والجوع والمرض خيانة فاجرة، لا تمحوها الأيام ولا تغفلها السنون.

"كتب الحجبة إلى عمر بن عبد العزيز يأمر للكعبة بكسوة كما يفعل من كان قبله، فقال: «إني رأيت أن أجعل ذلك في أكباد جائعة فإنهم أولى بذلك من البيت»

ومما أذكر أن الشيخ القرضاوي عاب في كتابه الشهير (فقه الاولويات) هؤلاء المسلمين الذين ينفقون الأموال للحج كل عام، بينما يتركون الفقراء والمساكين والمحتاجين من المسلمين ضائعين مشردين، ونوه بصرف المال في وجوهه النافعة كنشر الدعوة إلى الإسلام، أو مقاومة الكفر والإلحاد، أو في تأييد العمل الإسلامي لإقامة الحكم بما أنزل الله، أو نحو ذلك من الأهداف الكبيرة التي قد تجد الرجال ولا تجد المال، فهيهات أن تجد أذنا صاغية، أو إجابة ملبية، لأنهم يؤمنون ببناء الأحجار، ولا يؤمنون ببناء الرجال!"

هناك شباب يحتاجون للتعليم ولا يجدون المال الذي يبلغهم غايتهم، وتكون منهم عقول تذخر بها الأمة! هناك شباب يريد أن يتزوج ويحصن نفسه، ويكّون أسرة جديدة تكون لبنة قوية في بناء الامة، لكنهم فقراء لا يجدون، ولا يستطيع هؤلاء الأثرياء الذين يحجون كل عام أن يستوعبوا المأساة، لأنهم مغيبون وغارقون في مشاعر من الايمان الزائف.!

نعم إيمان زائف، فالإيمان الحقيقي لا يكون إلا في القلوب الحية التي ترق للمسلمين، وتشعر بحالهم ومآسيهم وتلبي غير متوانية أو متكاسلة لنجدتهم من أزمتهم.

في رحلات الداعية الشيخ (عبد الرشيد إبراهيم) ما يدلل على أن هذا السفه يطال كثير من الأمم على اختلاف معادنهم وأصنافهم وأجناسهم.. فقد شهد وهو في الصين عام ١٩٠٩م دفن امبراطورة ماتت عام ١٩٠٨ أي أنها دفنت بعد عام من موتها، وتيسر له حضور مراسم الدفن، وشهد من مظاهر البذخ والاسراف، ما دعاه أن يعلق بقوله: لو صرفت هذه المصاريف على بلدية بكين لأمكن إصلاح عدة شوارع، ولكن الله أعمى بصائرهم، فصرفوا هذه النعم في أمور لا طائل منها، إنه عجيب حقا، ثم فكرت مرة أخرى وحمدت الله أن هدانا للإسلام، فإن المسلم إذا مات لفوه في القماش ثلاث مرات وعجلوا في دفنه ودعوا له بالرحمة." وكانت شوارع الصين في ذلك الوقت قمة في القذارة حتى أنه قال: إن أقذر شوارع استنبول هو أحسن حالا من أنظف شوارع بكين.

ولكن ماذا لو قدر لعبد الرشيد اليوم أن يكون حيا ليشهد الصين التي ذكر شينها بالأمس؟ ماذا عساه أن يقول؟؟ لا شك أنه سيتحسر كثيرا على حال المسلمين أمام هؤلاء الناس الذين أفاقوا وقاموا واجتهدوا وتقدموا، بينما نحن المسلمين تراجعنا وتأخرنا وتقهقرنا للوراء.!

إياك والقرآن والدين!

روى ابن الأثير: أن الرشيد كان لا يصبر عن ابن أبي مريم الضحاك الفكه - المهرج - حتى أنه أسكنه معه في قصره، وقد مر به الرشيد في فجر ليلة وهو نائم، فكشف اللحاف عنه وقال: كيف أصبحت؟ فأجاب: ما أصبحت بعد، اذهب إلى عملك. قال الرشيد: قم إلى الصلاة. فأجاب: هذا وقت صلاة أبي الجرود، وأنا من أصحاب أبي يوسف. فمضى الرشيد يصلي، ثم قام ابن أبي مريم، وجاء حيث يصلي الرشيد فسمعه يقرأ في الصلاة (ومالي لا أعبد الذي فطرني) فقال ابن أبي مريم: ما أدري والله! فما تملك الرشيد أن ضحك، ثم قال وهو مغضب: أفي الصلاة أيضا؟ قال ابن أبي مريم ما صنعت؟ قال قطعت علي صلاتي. فقال والله ما فعلت، إنما سمعت منك كلاما غمني حين قلت: ومالي لا أعبد الذي فطرني فقلت: لا أدري فعاد الرشيد إلى الضحك، ثم قال له: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

وها نحن كل يوم نُصبح ونمسي على زنديق يحرف دين الله، أو فاسق يعيب في آياته، أو ملحد ينكر على أحكامه، أو مارق يتهجم على مبادئه وتعاليمه، دون أن نسمع من الحاكم المسلم كلمة يستنكر فيها هذا الإلحاد، أو يرده في نحره، أو يوجه إلى أصحابه أي تحذير أو عقاب على مساس الدين وتطاولهم عليه.. ولنا أن نتساءل: ماذا يبقى لنا بعد الدين؟ وماذا يحلو من الحياة لو أهين الدين؟ وكيف تستقيم دنيانا وكل يوم يجد ديننا من بيننا كلب يطلق عليه عواءه وقذاراته وخنزيرا يرميه بروثه ونجاساته؟ وإذا كان هناك من العلماء والمفكرين والدعاة من يردون عن دينهم ويزودون عن حياضه، يبقى التساؤل الكبير ماثلا في الأذهان وهو: ما موقف الحاكم المسلم ذو التسمية المسلمة، مما يجري ويحدث تحت سمعه وبصره،

وما دوره أمام هذا التجني على دين الأمة في ظل حكمه وملكه، إنه غائب لا يفوه بشيء وكأن الأمر لا يعنيه ولا يخصه، وربما يقول لك البعض: إنها حرية الفكر التي يتكلف بها حكمه وإدارته، والحق أنها حرية الصفاقة والسفاهة والفجور، وليست حرية الفكر.

تحركت في نفسي هذه الشجون ودارت بخلدي هذه الخاطرة، وأنا أقرأ هذا الموقف الجليل، للخليفة العظيم الذي حاولوا جاهدين تشويه صورته! ولكن آثاره وأخباره تُحرجهم وتكشف كذب ما حاولوا أن يرموه به ويدسوه في سيرته.. إنه هارون الرشيد الذي كان يعظم حرمات الله، والذي قال: إياك والقرآن والدين ولك ما شئت بعدهما.

ويا لها من جملة قالها الرشيد نرى أنفسنا اليوم أحوج ما نكون إليها أمام هذا السيل المدرار من التهجم على دين الله، والإساءة لآياته وأحكامه وسنة نبيه، نحتاج هذا الحاكم الغيور على دينه، المعظم لحرماته، الذي يخرج على الفجرة الفسقة منحرفي الفكر والاعتقاد، ليقول لهم: إياكم والقرآن والدين.

الفرار ليس جبنا!

بعض الناس حينما يفرون نجاة بأنفسهم من الأخطار.. نجد من يعيرهم بالخوف ويؤكد للدنيا جبنهم.. مخطئ جدا من يصف الفرار والنجاة بالنفس بأنه جبن وخور ونذالة.. ومن صلب التاريخ يتبين لنا أنه فطنة وحكمة ونصاحة.. لقد قص علينا القرآن الكريم ملحمة الهروب الكبير لنبي الله الكليم موسى عليه السلام والذي كان يعلن صراحة أنه خاف ويخاف، فهل يعني ذلك أن موسى عليه السلام يتصف بالجبن؟

أي جبن يا قوم والنفس تتهددها الأسنة، وينذر بعد حين للسيف أن يطيح بالرقاب؟!

وجدت بعض الأغرار يوما يعيب على بعض السياسيين حينما غلب خصومة على الساحة السياسية أنه هرب وفر منه أعينهم في ثوب امرأة، ويكاد يقول للدنيا أنه امرأة.. وما هذا عندي إلا ذكاء وفتوة وفطنة.. كما وجدت بعض من يتمسحون في الثقافة والمثقفين من

يصف الأستاذ العقاد بأنه جبان حينما فر للسودان خوفا من انتصار هتلر ودخوله القاهرة لأنه ألف كتاب هتلر في الميزان.. وإمام المسلمين محمد الخضر حسين الذي كان يكافح الاستعمار الفرنسي في تونس فر إلى الأستانة حينما حكموا عليه بالإعدام وأنا أصر على كلمة فر لأنني لا أرى عيبا في هذا.. كما فر من الشام إلى مصر لما أحس بوطأة المستعمرين هناك، أي فر مرتين وعلم الدنيا وسيد الهداية ونص بعدها شيخا للأزهر فلم يعيره النابهون وقتها بأنه جبان فرار.

وانظر إلى هذا البطل من أبطال العرب وأمرائهم وهو صقر قريش الذي مكن لدولة الاسلام في الاندلس وخلف دولة كبرى لم يقدر عليها أعداؤها حتى لقبه عدوه اللدود أبو جعفر المنصور بصقر قريش وقال: الحمد لله الذي جعل البحر حاجزا بيننا وبينه... ولكن هل تعلم أنه لولا الفرار لما قامت هذه الدولة الكبرى ولما قام هذا البطل العربي الكبير؟

حتى الأجيال الأولى نجد فيها سيد التابعين سعيد بن جبير الذي خرج على الحجاج وبايع ابن الأشعث فلما تغلب الحجاج، هرب سعيد إلى أصبهان ثم لما جد الحجاج في طلبه هرب متخفيا إلى مكة إلى أن ظفر به.. وهذا هو ابن جبير من قال فيه إمام السنة أحمد بن حنبل: لقد قتل الحجاج رجلا ما من أحد في الدنيا إلى ويحتاج إلى علمه.. فهل هذا الجبان أم الذكي الفطن النبيه؟ بل هناك من جعل الهروب سمة وصفة وطنية وهو الزعيم الكبير خطيب الثورة العرابية الذي كان يتفنن في الهروب ويبدع فيه، فبعد هزيمة التل الكبير كان على عبدالله النديم أن يتوارى عن الأنظار فقفز إلى مركب متجهة إلى الغربية بصفته درويش ومعه خادمه، و رغم قيام شرطة الخديوي توفيق بمداهمة المركب والبحث عنه إلا إنه أفلت منهم.. استخدم نفس الشخصية الخيالية أبي زيد السروجي في مقامات الحريري للتنكر فكان عليه أن يصبغ شعر ذقنه بالصبغة الحمراء ليلًا، وأن يعوج لسانه كي يتنكر بشخصية رجل مغربي تارة أو رجل يمني تارة أخرى ورغم أن عدة مواقف كادت تؤدي بالقبض عليه إلا إنه أفلت منها بأعجوبة.. وعجز الخديوي توفيق والانجليز عن القبض عليه فوضعوا مبلغا كبيرا من المال لمن يدل عليه، إلا إن النديم قال لخادمه الذي لا يعرف القراءة

ولا الكتابة أن الحكومة عرضت لمن يقبض عليك مبلغ ٥ آلاف ولمن يقبض على مبلغ ١٠٠٠ جنيه، ولأن الخادم خاف على نفسه لذا استمر الخادم مثل النديم يبتكر حيل في التنكر والتخفي ويقوم باعوجاج لسانه كأنه غريب وبعد فتره سمح له النديم بأن يذهب لأسرته ويتخفى عن الأنظار.

وهكذا كان الفرار في حياة الأخيار.. ترى لو كانوا جبناء فهل كانوا يقفون ابتداء مواقفهم الكبيرة التي انتصروا فيها للحق وأيدوا بها ما يرونه صحيحا؟

لو كانوا جبناء لسكتوا مبكرين ولم يتفوهوا بشيء..

القرآن يعلو ولا يُعلى عليه

منذ فترة يسيرة كتبت عن وقاحة بعض الأدباء الذين يتساهلون في الحديث عن ألفاظ الجنة والنار، وما يوحي بعضها باستخفاف بهذا المقام الذي يجب أن يخشع فيه الإنسان، وترتعد فرائصه ويرتج وجدانه، ويرتعش حسه، وتنقبض روحه.. لا يصح أبدا أن نعبث فيما نعبث فيه من ألفاظنا مع الجنة والنار أو مقام الألوهية.. ويمكن أن يتسرب إلى أذهاننا تصور بعذر هؤلاء الذين لم يتربوا تربية إيمانية، ولم يتلقنوا من الصغر توقير شعائر الله، وتعظيم مقامه.

ولكن ماذا وكيف نعذر بعض العلماء والأتقياء، والمنتسبين لهوى التدين، حينما ينفرط عقد إعجابهم بمصنف أو كتاب، ويأخذهم الغلو في مدحه، فنرى بعضهم يلوح بتعبيرات تجعل هذا المصنف أو ذاك، في مقام القرآن، ولو بالتعبير المجازي والصيال البياني.

قرأت مرة من يقول عن الإحياء:

كاد الإحياء أن يكون قرآنا.! وقد حاول بعضهم نسبة هذه المقولة للإمام النووي، وحاشا لله أن ينطق مثل النووي بهذه المعاني، وأما من صدق نسبتها إليه، فقد حاول تبرير الأمر بأنه قال ذلك من كثرة قراءة الناس للإحياء، ولم يقصد به التشبيه والمثلية.. وهو ذات الأمر وذات القول، الذي قيل في الحكم العطائية، فقد قال القائل: لو كان هناك ما يتعبد به بعد

القرآن لكانت الحكم.. لقد جئتم شيئا إدا تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا.. كيف طاوع هؤلاء إيمانهم أن ينطقوا بمثل هذا القول.؟ كيف لهم أن يدعوا لكلام الرحمن شبيها ومثلا؟

والسنة ذاتها على اعتبار عظمتها ومقامها، وقول النبي الكريم: لقد أوتيت القرآن ومثله معه، لم نجد في تاريخ الإسلام من ساوى بين السنة والقرآن، فالقرآن له السبق في دنيا الإسلام ومسار التشريع، ولا يعدله قول أو يضاهيه، عظمة وبلاغة وقدسية.

ربما يكون التعبير الأدبي قد ساق بعضهم لهذه الزلات اللسانية، لكنها أقوال لا يجب أن تشاع بين أصحاب العقيدة الصحيحة، وهي مما يجب الاستغفار منه والتوبة عنه.

لست من المتشددين أو المتعنتين، ولكنني أدعو إلى تعظيم الحق، وإكبار كتابه، واحترام مقدساته، والهيبة من أن نمسها بسوء الأقوال وخاطئ الألفاظ، فهي ليست مما نتداوله في حياتنا من كلام البشر أو معاملتنا مع الناس.

قال تعالى: مالكم لا ترجون وقارا.؟

حسبك يا رجل، إنه كتاب الله، الذي تحدى فيه الإنس والجن أن يأتوا بمثله أو بمثل شيء منه، ثم أعلن فشلهم وعجزهم، ثم تأت أنت بما يجعل لكتاب الله شبها ومثلا؟!

القرية العارية

هل سمعت من قبل عن قرية تعرت، وانكشف ستار أهلها، وعرفت سواءاتهم وعوراتهم.. نعم حدث هذا في قرية ريفية لا داعي لذكر اسمها حتى لا يغضب أحد من أهلها.. الذين هم ككل البشر، لا يقبلون أبدًا إلا المدح، ولا يحبون أن يذاع عنهم إلا الكمال.! ولكن حتى لا يذهب عقلك هنا أو هناك، يجب أن تعلم وتدرك أن الذي أخبرني بهذا صديق من هذه القرية التي تنتمي إلى محافظة البحيرة.. هاه هل فهمت؟ قلت: محافظة البحيرة! حماني الله وإياك من ظنون السوء.. كان ذلك في فترة التسعينات حينما عرفت القرية التليفونات

وتسابق الجميع لامتلاك وتركيب الهاتف الأرضي.. والذي كان في بدايته لا يخلو من كثير من الأعطال والأعطاب، التي تستمر بضعة أيام حتى يأتي عمال الصيانة ليصلحوا ما فسد منه.

وفي يوم من الأيام أصيبت أسلاك الهاتف الأرضي ومحطاته بما يشبه السرطان فتداخلت الخطوط بعضها في بعض والتقت الأسلاك تحتضن بعضها كأنها عشيقان يذوب أحدهما في الأخر، وأظهرت الكيابل في العطاء لبعضها واستخراج ما في جعبتها كأزهى ما تظهر فيه كرما وجودا، فما أن ترفع سماعة الهاتف حتى تستمع إلى مكالمة خاصة لفرد من أفراد القرية، يحكي أسرارًا لا يجب أن تنكشف أو يعرفها أحد، رجال كثيرون ونساء، شابات وشبان، ربات بيوت وكبار وصغار ورجال أعمال، كثيرون انكشفت سيئاتهم وما يخفونه من دفائن ومكتومات لا يعلمها غيرهم.. كان أحدهم يظنه الناس أنهم محترما فإذا به منحطا.

كان هناك من يظن الناس بهم الكرم فإذا هم قمة في البخل، كان هناك من يظن الناس بهم العفة والطهارة فإذا بهم موغلون في النذالة والسفاهة، كان هناك من يظن الناس به الشجاعة فإذا هو جبان، كان هناك من يظن الناس به الأدب والخلق فإذا هو القدح المعلى في انعدام الشرف والأخلاق، كان هناك من يحترمه الناس فإذا به يسقط سقوطا مدويا، كان هناك من يبدو من العباد المتقين، فإذا هو من الفاسقين المنحلين.

أسرار كثيرة عرفت وشخصيات كثيرة تعرت.. وكان الجميع رغم معرفتهم باختلاط الخطوط، إلا أن شهوتهم في الكلام عن أسرارهم أعمت عقولهم عن التحسب واتقاء هذا البلاء الفاضح، وكان أحدهم حينما يسمع غيره يظن أن الأخر لا يسمعه، وأنه بمنأى عن هذا الاختراق.. وكان مما عرفنا من هذه القصص حكاية رجل كان مغرما بامرأة، كما كانت هي الأخرى مغرمة به، كانا يحكيان حبهما وشغف كل منهما بالأخر، كانت متزوجة لكن زوجها غائب عنها فلم تستطع أن تكتم حاجتها لرجل يملأ حياتها.. وأمام هذا الضعف استطاع الرجل أن يسلك طريقه إلى قلبها، ولم يكن السامع يصدق أن هذا الرجل هو هو

صاحب السيرة الحسنة والمكانة المرموقة، ومن يسير في الشارع فيبجله الناس ويحترمونه وينال من نفوسهم تقديرًا كبيرًا.

أخذ السامع يفكر كيف يتدخل ليفصل في هذ الأمر؟ واستقر به التصرف أن يرسل خطابا لزوجة الرجل المحترم الذي تبين أنه غير محترم، حتى ترده ليترك تلك المرأة في حالها فلا يشغل فكرها حياتها لأنها متزوجة، وبالفعل وقع الخطاب في يد الزوجة التي صمتت ولم تبد على ملامحها أي شيء، حتى تتأكد من صدق ما عرفت خاصة أنها تلاحظ غياب هذا الزوج في حجرة المكتب ومعه التليفون وقتا كبيرا في جنح الليل بحجة العمل، واقتربت من باب الحجرة فسمعت من الكلام ما أكد لها الخبر.. وتشتعل نار الغيرة في قلب الزوجة بل أعمت عقلها عن التفكير إلا في شيء واحد فقط هو الانتقام، وفضح تلك المرأة التي تحاول السطو على زوجها.. وفي السوق الذي يعج بمئات من نساء القرية ورجالها، أخذت تبحث عنها حتى عثرت عليها، واحتكت بها وكانت معركة هائلة، يعلوها السباب والشتام والفضائح المدوية، التي تسبب فيها خطاب المتنصت، بل تسبب فيها الهاتف الأرضي بأعطاله وتداخلاته.. عرف الزوج بالخبر الذي شاع وانتشر ومس العرض والشرف، فرجع من سفره مجروحا محزونا متواريا، يحاور نفسه ويتساءل: هل الذنب ذنبي أني تركتها سعيا وراء عملي ورزقي، أم أنها السبب حين لم تحفظ لي غيبتي؟ هل أقتلها على هذه الخيانة وهذا الغدر؟ أم أقتل هذا السافل الذي غرر بها وتسبب في فضحنا؟ وأمام هذا الحوار النفسي لم يتحمل الزوج أن يعيش معها مرة أخرى، فطلقها وتشردت الأسرة وضاع الابناء بعد أن ساءت السمعة وأهين الشرف.. وإذا كنا نلوم أحدا على التفريط في الاخلاق والانجرار وراء شهواته، فإن اللوم الأكبر إلى هؤلاء البشر الذين يفتقدون خلق الستر، ويتحولون إلى فضاحين شياعين للفحش، لأن قيمة الستر حينما يلفظها ويتجرد منها المجتمع فإنها أكبر عوامل انهياره وضياعه وتفسق روابطه وانحطاطه.. ومن هنا ربط نبينا الكريم قيمة الستر بمصير الانسان في الدينا والأخرة حينما قال: (لا يستر عبد عبداً في الدّنيا إلّا ستره الله يوم القيامة).رواه مسلم وقال: (من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة، ومن

كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته) رواه ابن ماجه وصححه الألباني، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة) رواه ابن ماجه وصححه الألباني.

الغاية المنسية

يدور اليوم غضب هائل على قرار وزير الأوقاف، بمنع قراءة القرآن في المساجد قبل ساعة الإفطار، والذي صار عادة توارثها المصريون منذ الارتباط بالإذاعة وإنشاء منصة إعلامية خاصة بالقرآن الكريم.. لقد خرجت بعض الصحف تنفي صدور مثل هذا القرار لكن بعض التسجيلات على اليوتيوب تعرض مقطعا لمسؤول من الأوقاف يؤكد القرار، ويبدو أن الوزارة تراجعت عنه لما قد يحدثه من غضب الشارع.

والحق أن هذا الغضب لا نمدحه ولا نستحسنه لأنه في حقيقة الأمر يذكر الواعين منا بمدى الخيبة التي مُنينا بها في تعاملنا مع القرآن الكريم، حين اكتفينا منه بمجرد التلاوة والحفظ فقط، ولو أن هذا الغضب العارم نال قضية القرآن الكبرى وهي العمل به، لكان له في حياتنا مسار آخر.. نحن اليوم أو أغلبنا لا نتعامل مع القرآن إلا كما يتعامل العجزة الجهلاء، ولا نتعامل معه كما تعامل السلف الصالح حينما جعلوه آلة التغيير الرهيب لمثالب حياتهم إن كانت لهم مثالب، بل جعلوه طريق التجديد الذي يجدد حيويتهم الايمانية وإنجازاتهم الاسلامية على صعيد العمل المهجور.! وكان الواحد منهم لا يحفظ الا سورة واحدة أو بضع آيات يدرب نفسه ويصرف همه للعمل بها.! وكما يحدث التناقض في حياتنا في كل شيء، يحدث في قضية تناول القرآن الكريم، ففي الوقت الذي يرتاد البعض منا صفوف الصلاة الأولى، تراه على جانب آخر يسرق و يزني أو يضر الناس ويستحل الحرام.

ونفس المحنة نجد بعض النقادين لإشاعة منع وزارة الأوقاف لصوت القرآن الكريم من الظهور، من هجر العمل به ولا يلتزم بأبسط تعاليمه، ولا يعلم أنه منع نور القرآن في نفسه قبل أن تمنع الوزارة صوته في المساجد.!

وأنا هنا أعرض وجهة نظر واقعية لابد أن نتأملها ونقف فيها مع أنفسنا وقفة جادة، وإذا كان رمضان شهر القرآن، فإننا قد فهمنا خطأ حينما وعينا أنه شهر القراءة و الحفظ والتلاوة والتجويد، بينما هو في الحقيقة شهر العمل بالقرآن وهجر ما كنت عليه من معاصي، وتجديد إيمانك، وشحذ نفسك بالعمل الصالح، ولو أننا على هذا المسار والآخذين به فلن نهتم أبدا بإذاعته في المساجد من غيره.! وقد أعجبني أحدهم حينما حَدثَ الغاضبون بغلق المسجد الحرام بسبب جائحة كورونا، وحاول أن يظهر الأمر بتفسير سطحي بأنه جريمة دينية، ويؤوله تأويلا بعيد الشطط بأنه مؤامرة على الإسلام، بأن هناك وبجوار بيتك مسجدا أيضا يشكو قلة الصلاة فيه، فهل حزنت عليه وهو أيضا من مساجد الله؟!

مشكلتنا في العواطف الخاطئة، والمظاهر التي تحولت إلى عادات تبحر بنا بعيدا عن الغايات الكبرى والمقصودة، ولو أردت فعلا أن تنتصر للقرآن فلتعمل به، وتمكن هديه من قلبك ونفسك، فعلى النقيض من الممكن جدا أن يظهر أمامك من يقول لك: إن قراءة القرآن ساعة المغرب وتحويله إلى عادة مستديمة بدعة لم يكن يفعلها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ولا صحابته الأطهار، ونحن نريد أن نركز هنا على الداء الحقيقي ولا نصرف همنا في أمور شكلية ونتخيل أنفسنا معها ضحية مسكينة لا حول لها ولا قوة ونستدعي معها تدخل السماء.! نحن نريد أن نضرب هذه الصورة الخاطئة التي جعلناها في مجتمعاتنا للقرآن الكريم، حين كانت جُل غاياتنا منه الاحتفال بحفاظه والتشجيع على تجويده وتكريم تُلاتِه، بينما لم نحتفل مرة واحدة بالعاملين به، ولم نكرم يوما ما مطبقا لتعاليمه.

كما نريد اليوم من حادثة منع الوزارة لهذه الطقوس، صدقت أم كذبت، أن تلفتنا لقضيتنا الأساسية أو بتعبير أدق: لفقدنا الأساسي وهو العمل بالقرآن.

العلمانية غير النصرانية

حدثني صديقي مؤخرًا أنه يرى الغرب في عقيدته ودينه أفضل منا، لأنه أكثر سماحة ومواطنة وإيمانا بالإنسانية، حيث يقبل أن تقام على أرضه مساجدنا، ونقرأ عندهم قرآننا، بل يسمح لنا بدخول كنائسه، بينما نحن نجد حرمة كبيرة أن يدخل النصراني أو اليهودي مسجدنا إلا لحاجة.. قلت لصديقي: إن الحكم على الغرب بهذه الصورة السطحية خطأ كبير، لأن هؤلاء الناس لا تحكمهم العقيدة في بلادهم، فهم علمانيون تتساوى لديهم كل الأديان ويؤمنون بالوطن وحده، فهم قد جعلوا أوطانهم شبيهة بالأرض التي تقبل كل الزرع والنبت فيخرج منها الحلو والمر والطويل والقصير والأملس والشائك والطيب والرديء والأسود والأبيض.. قال لي معقبا: إذن وكما تقول إن الدين لا يمثل لهم شيئا فلماذا تدّعون أنهم يريدون تنصير العالم، ويناصبون الاسلام العداء في كل مكان، وهم يسمحون له بالتواجد على أرضهم؟

قلت: إن الغرب تسوده العلمانية وتحكمه قوانينها التي تتقبل كل الأفكار، وليس معنى أن الغرب قبلك في بلاده بصفتك الروحية وأقام لك المساجد ووفر لك الرعاية وأقام لك شعائر دينك، أنه يقبلك ويرحب بدينك وأن ما يشاع عن العداوة بينه وبينك خطأ وزيف؟!

إن الغرب يحارب في بلادنا أي تيار ديني يدعو إلى تحكيم القرآن، وينتهج السياسة ويخوض غمارها حتى يكون له صوت وتعبير وتأثير، أما أن يكون كل همك مجرد مسجد تقيم فيه صلواتك، فلن يضيره من هذا شيئا، بل يشجعك عليه وربما يقيمه هو لك، لأنه يشجع الإسلام الروحاني والدين الطقوسي، كما أن الغرب إذا كانت تسوده العلمانية، يسمح في ذات الوقت بالعمل الكنسي والتوجيه الكهنوتي، فقد أطلق يد الكنيسة في كل مكان في العالم، تجد وينشط رجالها في تنصير الشعوب، وكان ذلك من قديم الزمان منذ بداية الحملات الاستعمارية الحديثة التي انطلقت لغايتين نهب ثروات الشعوب وتغيير هويتهم ودينهم ولغتهم، ثم ألا تسمع في الغرب حتى الآن، رغم سيادة العلمانية والترحيب

بمساجدك وصلواتك عن الإسلاموفوبيا، والأحزاب اليمنية المتعصبة المتنمرة بالإسلام والمسلمين، وتدعو ليل نهار لطردهم من أوروبا، بل هل سمعت عن الجرائم التي ترتكب في حق المسلمين والمسلمات، بسبب المآذن والحجاب والمساجد، ألا تذكر مؤخرا تلك الجريمة النكراء التي حدثت في استراليا؟ وإذا كانت العلمانية قد قبلتك في الغرب ، فإن الروح المسيحية الصليبية ترفضك وتبغضك ولا تقبل بوجودك، فالدين إذن ليس له علاقة بتوجه الدولة العام.

إن بعض الأمور فيها لبس كبير، ولا تستطيع العقول الضعيفة أن تتبين بعض الحقائق المخفية، لكن النظر القاصر للأمور بسطحية يخلف ضلالا في الحكم والتفكير وتشخيص الآراء والانطباعات.

العداء الأوروبي للإسلام؟

يُصيبني ذهول كبير من هذا العداء الشرس الذي يلقاه الاسلام في أوروبا.. كما تهولني تلك الحوادث التي نسمعها كل حين عن إيذاء المسلمين وإظهار مشاعر الكُره والبغض لوجودهم بين سكان هذه القارة في العديد من دولها الكبيرة الشهيرة التي يُنادي بها بالحرية والكرامة الانسانية ..وحينما تتأمل هذه الروح السلبية العدوانية تتعجب وتتساءل :من أين أتت وبهذا الشكل الجنوني ؟! وهل يستطيع الإعلام وحده والذي يسيطر عليه اليهود أن يصل بهم إلى هذا الحد من الغليان والذعر ضد هذا الدين وأهله؟!

كل هذه تأملات وتساؤلات.. ولعلنا ندرك أنها عوامل عديدة ساهمت في إيجاد هذه الصورة العدائية العنصرية ضد الإسلام والتي لم يحظ بها دين أو مذهب من المذاهب وطئ أرض أوروبا.. فمن المعقول والمقبول أن يكون الإعلام الصهيوني سببًا في ذلك، ويمكن كذلك أن البغض نابعًا من سلوكيات بعض المسلمين التي تجنح للتطرف والغلو، ويمكن أن ترجع للشحناء القديمة والعداء المتوارث بين الشرق والغرب وذكريات الحملات الصليبية.!

يمكن كل ذلك.. لكن الشيء الجديد والمفزع أن تقوم المدارس الأوروبية ودور التعليم فيها بتدريس مناهج تحمل الكراهية للإسلام وتعاديه وترعى الناشئة وتخرجهم على هذا البغض والحذر من هذا الدين وتصويرة بصورة بشعة شائنة لا تليق بالرقي والحضارة.. وهنا علمنا الآن من المتسبب الأكبر في خلق هذه الدوامة الكبيرة من الكراهية، والتي لم تخرج من يد الأوربيين أنفسهم حينما بذروا بذورها ورووها وإلى الآن ، دون وضع أي اعتبار للتصور الإنساني وحرية الاعتقاد والعمل على دراسة طبيعة هؤلاء المسلمين والبحث في دينهم عن نقاط التقاء..! ربما يظن البعض أنني بهذا المقال أحاول الافلات من جناية المسلمين على أنفسهم ومحاولة إلقاء اللوم على الاعلام اليهودي والمناهج الدراسية في عدائهم للإسلام والبعد عما يرتكبه المسلمون من الوان التطرف في الفتاوى والسلوك ..! وهذا غير صحيح فالمسلمون أو بعضهم أسهم إسهاما كبيرا في تشويه الصورة بما يفتعل من مظاهر تطرف أو صور غير حضارية يشمئز منها من يراه ويعاشره...المسألة كل متكامل وأكثر من عنصر ساهم في خلق هذه الصورة السلبية ..لكن حينما يتعلق الامر بالمناهج الدراسية وتليقن الناشئة هذه الروح فهو أمر له باع كبير في الخطورة وحجمه الضخم في النتائج المقررة.

إن هذه المناهج تصور المسلمين بأنهم همج رعاع متخلفون عنيفون يحبون الخراب ويكرهون العمران وينزحون إلى أوروبا لنيل الدرجات العلمية والتضييق علينا .. وتخيل حينما تكون هذه الصورة التي يتلقاها العقل الأوروبي عن الإسلام والمسلمين بل يتلقاها الصغار في مدارسهم وتُجبل عليها عقولهم.. إن نفوسهم مشبعة بكره الاسلام، وتغيب عنهم بتعمد حقيقته المشرفة ووجهه الحضاري المشرق وانطلاقتها الكبرى التي أنارت الدنيا وفتحت مغاليق العلوم ووجهت العالم لسُبل المعرفة ..هناك دراسات قامت بها مراكز وأشرف عليها باحثون تطلعوا لكشف اللثام عن هذه الحقائق والأسرار ومنها هذه الدراسة التي استغرق اعدادها ١٤ سنة للبروفيسور (عبد الجواد فلاتوري) رحمه الله المستشرق والمحاضر بمعهد الدراسات الإسلامية بألمانيا ومعه زميلته البروفيسورة (توروشكا) بدراسة منهجية على مناهج الكتب الدينية المدرسية التي تدرس لطلاب عدة دول أوروبية منها ألمانيا وفرنسا

وانجلترا وهولندا وأسبانيا وغيرهم ، وقد شارك فيها عددا من الباحثين الألمان ونشرت بعدة لغات انجليزية وعربية وألمانية.. وأثبتت الدراسة أن هناك خلط وتشويه واضحين وبصورة متعمدة للإسلام كديانة وللمسلمين كشعوب وقعت فيه الكتب الدراسية في الدينية في أوروبا والتي أثرت بلا شك على عقلية التلاميذ ومن ثم العقلية الأوروبية كلها ونظرتها للإسلام والمسلمين ..وفي دراسة أخرى قام بها معهد جورج أيكيرت الالماني لأبحاث الكتب المدرسية بعد تحليل ٢٧ كتابا تستخدم في مدارس خمس دول وهي بريطانيا وفرنسا والنمسا وإسبانيا وألمانيا وكان من نتائجها أن هذه الكتب تقدم عن الاسلام أفكارا مشوهة تعكس ما أسمته بـ العنصرية الثقافية .

أزياء شيخ أزهري

رمانا الدهر بكل رزية، ولم تبقى إلا رزية عالم الدين، حينما يتحول إلى مسخ مهرج منافق بعدما أغرق نفسه في التلون والمجاملات والمداهنات، بغية التألق والظهور والبروباجندا.

عالم الدين بعدما كان النموذج الراقي للشخصية المتزنة العاقلة الحكيمة النبيلة، التي تلتزم حدود الدين، وتعاليم الله، ووقار العلم والعلماء، أصبح اليوم منهم مهرجون وبهاليل ومستخفون، ومغردون في حلقات النفاق.

بل أصبح اليوم منهم، من يحاكي الشيوعيين والملاحدة في خروجهم وكفرانهم بثوابت الدين وتعاليمه، فصار الواحد منهم، يؤول نصوصا، ويغير ثوابتا، حتى يرضي جنون الشهرة أو مرض الشهرة الرابض في نفسه وذاته كأسد مسعور، يفتك بكل شئ، ويدهس كل شي من أجل إطراء النفس وإرواء الذات.

ومنهم من يسيل لعابه للمناصب والمراكز، والقرب من ذوي السلطة والجاه والأثرياء، بل يلهث وراء الأعطيات والمكرمات والمنح والعطايا، تلك التي تمنحها تيارات معادية للدين والشريعة، يفعل الشيخ هذا على حساب دينه وقيمه وهويته.

ومع هذه الجنايات، يدعي الجاهلون بأنه شيخ منفتح ومتنور، وعصري وحداثي، وما هو إلا أحمق دعي مخرف مزيف مريض قليل الإيمان والتقوى، جريء وقح لا يرجو لله وقارا.

كان هذا لونا من ألوان الدعاة الذين ابتلينا بهم في هذا الزمان.

منذ يومين خرج شيخ أزهري، بلباس الخواجات الكلاسيكي، ليبعث برسالة مفادها السخرية، من النمط الأزهري، ومحاولة لتمييع نظرة الناس لقداسة هذا الزي المبارك، وجلالة من يحمله.. يريد الرجل أن يفتعل شيئا جديدا ومجنونا، ليكون حديث الموسم، شأنه في ذلك شأن تلك الممثلة، التي كلما جاء مهرجان الجونة تتعرى، أو يتعمد إسقاط أسفل لباسها حتى تتكشف سوءتها، لتكون حديث الأنباء، ونبأ الوكالات وحكاية الفضائيات.

حاول الرجل أن يكون حديث العالم، حينما خرج على الأسماع يوما وادعى أنه قرأ ربع مليون مجلد، لكن الدنيا انقلبت عليه، وبعد عملية حسابية يسيرة، تكشف لها زيفه وكذبه وخداعة، إذ يحتاج إلى أعمار مع عمره، حتى يقرأ هذا الكم الهائل من أسفار العلم، الذي لا تطيقه الملائكة في عليائها، ولا الجن في خفائه.

ولما فشل في دعوى القراءة، التي كان ينتظر أن تجلجل لها الدنيا، جلس مع نفسه، وأخذ يفكر، ماذا أفعل؟ لابد من قنبلة وحادثة شاذة تثير غبار الإعلام، وفي نفس الوقت لا تبلغ درجة الإسفاف، فكانت الجناية على الزي الديني، الذي قد يرى بعض الناس أننا بنقده نتعدى على الحرية الشخصية، والإرادة الذاتية، لكننا لا نقصد إلى هذا أبدا، وإنما نعيب على العلم أن تنتسب إليه عقلية بهذا الخواء، ورأسا مليئة بهذا الاستخفاف، وفكرا جانحا لهذا الهزء، الذي لا ينطلي على الذين هم أهل الله وأهل كتابه.

ولعل كل من يقرأ مقالي يتعجب من هذا الطرح ويقول: ماذا فعل الشيخ، ليتم عليه هذا الهجوم وهذا الاستنقاص، فالله تعالى ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم.. وهذا القول يطلق علي الانسان، لو كان يرتدي زي الفقراء والمحتاجين، الذي من شأنه أن يتجرد من الوجاهة وتعظيم الناس، هنا نقول للناس: رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره، يطلق على من يرتدي ذي الملوك وأهل الجاه، بينما حاله ينبئ بالعصاة.

الشيخ لم يفعل شيئا، ولم يرتكب جناية، لكن كل ما فعله أنه أتى بأعمال المهرجين، وظهر في الصورة التي خرمت وقار الدين.. انظر معي لأقرب لك المثل، ماذا لو خرج علينا شيخ الأزهر مثلا وهو يرتدي البرمودة والتشيرت، هل سيكون ذلك مستساغا؟

ابتعد قليلا عن زي الشيخ، واستمع للحلقة التي جادل فيها عالما آخر من علماء الأزهر، والتي يقر فيها فعل كل حرام ومنكر، مادام القانون يسمح به، إن الرجل بما أتى لا يفتي في الدين، وإنما يهدم الدين، ويعبث بثوابته وأصوله، في صورة هرائية غير مقبولة.

ولعل فعل الشيخ الأخير، وهو الذي أريد أن أركز عليه الآن، وهو أن سلوكه هذا يعكس حالته، ويبعث على فهم شخصيته وتصرفاته، فالشيخ يأخذ الأمور كلها بتهريج، الدين والفتوى والعلم والمنبر والمقام الأزهري.

حينما مات الشيخ الشعراوي، خرج علينا ذات الشيخ بنفس الزي الذي كان يتزيا به الراحل، وبنفس غطاء الرأس، حتى نفس الكرسي الذي كان يجلس عليه، وكأنه يريد أن يقول لنا من خلال الزي: أن الشعراوي لم يمت، وأنا خليفته المنتظر، ولكن فرق كبير بين الثرى والثريا، ولا شك أننا نحمد أن يتشبه كل إنسان بالشعراوي، فالشاعر يقول:

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم**إن التشبه بالرجال عظيم

وهذا تصرف مقبول وإن كانت فيه خفة ممجوجة، فالتقليد دوما تتقيأه النفس، وتستميعه الأذواق، ولكنه كما قلت: مقبول، لكن الذي لا يقبل أن يتشبه داعية بالخواجة صروف، الذي هو يهودي يحيك المؤامرات في الخفاء.

شيوخ الدين ودعاته منهم قطاع يؤمن ويتصور أن الخروج على مفاهيم الدين واعتماد شبهات جديدة وغريبة، هو عين التجديد، وغاية الفكر ولمعان العقل وبغية التنوير، لكن صاحبنا له مفهوم أكثر إثارة في التجديد، وهو تجديد الزي وجديد الازياء، ومن يتابعه في ملابسه وهيئته وتفصيلات أزيائه، يجد فيها شذوذا وغرابة، ويشعر أن الرجل يريد أن يقول شيئا، وهو أنه متميز ومختلف مغاير.

صاحبنا للأسف يتخيل نفسه نجم من نجوم السينما، ويتعامل مع حضوره الإعلامي على أنه من هذا الفصيل، ويرى أن قطاع الفنانين والفنانات، لا يفرقون عنه في شئ، وأن العالم يجب أن يهتم به كما يهتم بهم، في كل شئ في الشكل والفعل والتصرف، وحتى الملبس.. إنها أفعال رجل قلبه معلق بالدنيا لا بالله.. ومهما كانت الحرية الشخصية ومهما كانت الدعوة إليها، فهناك شيء اسمه الوقار واحترام المقام، الذي يخدم أفكارك، ويفيد غايتك.

إن ظهر الرجل السخيف ، قلب علينا كل المواجع من تصرفاته وفتاويه الصادمة، والتي ما زلت تصدمنا بغرابتها وشذوذها.

زلزال آيا صوفيا

تابعت بدقة ما يكتب من الآراء منذ توقيع الرئيس التركي رجب طيب أردوغان، على مرسوم بتحويل آيا صوفيا في مدينة اسطنبول إلى مسجد، وهو المرسوم الذي أعقب قرارا للمحكمة الإدارية العليا بتركيا، بإلغاء وضع المتحف الذي منح لهذا المبنى على مدار عقود ماضية.. وكان مجلس الدولة التركي، والذي يمثل أعلى محكمة إدارية في البلاد، قد أصدر قرارا في وقت سابق، يبطل فيه الوضع الذي كانت آيا صوفيا توصّف بموجبه كمتحف، وجاء قرار المجلس بناء على طلبات، تقدمت بها عدة منظمات بإبطال قرار حكومي، يعود للعام ١٩٣٤ ويعطي أيا صوفيا وضع المتحف.. ونقلت وكالة أنباء الأناضول التركية، عن المحكمة قولها، إن آيا صوفيا مسجّلة كمسجد، في سندات الملكية التي تحمل اسم مؤسسة محمد الفاتح، وهو السلطان العثماني الذي كان قد ضم القسطنطينية إلى الدولة العثمانية، خلال القرن الخامس عشر، مشيرة إلى أن هذا التصنيف غير قابل للتعديل.

ولا يسعني إلا القول بأنني وجدت جهلا كبيرا وممجا بالتاريخ والواقع، كما وجدت افتراء في الحكم والفهم والتقييم.! بل دعني أقرر لك في وضوح وصراحة أن ضعف الإيمان بالله وقضية الإسلام كان باديا في كثير من الآراء، متخفيا تحت آراء ومسميات وفلسفات فارغة

ليست من الحق في شيء.. ويمكن هنا أن أقول لك: فرق كبير بين من يتعامل مع الغرب بالنية وصلابة المواقف، وبين من يتعامل بالانبطاح والخذلان وروح الهزيمة، ويستجدي رضاء الغرب المسيحي الصليبي الذي لن يرضى عنك أبدا، ما دمت تحمل في قلبك كلمة التوحيد بإخلاص وإيمان.

والحق أن مسألة أيا صوفيا ليست مجرد مسجد قد تم فتحه، بعد إغلاقه من أيام اللعين أتاتورك وتحويله لمتحف، وإنما جاء فتح آيا صوفيا للمصلين من جديد تذكير للغرب بالألم والطعنة الكبرى في تاريخ صراعهم مع المسلمين، حينما تهاوت حصون القسطنطينية تحت سنابك خيل الفاتح العثماني العظيم.

كما أعرف بيقين أن الكثيرين لن يستطيعوا أن يفصلوا الموقف السياسي من تركيا عن هذا القرار، فهناك من يسوؤهم ويفزعهم أو يغضبهم، أن تظهر قرارات في تركيا تحاول أن تجعل من زعيمها زعيما دينيا نصيرا للإسلام والمسلمين، حتى ذهب بعضهم ليقول له: عليك بتحويل الخمارات والحانات لمساجد، بدلا من تحويل أيا صوفيا، وهذا قول يحتاج في نقاشه إلى أزمان وأيام حتى يصل صاحبه لدرجة من الوعي السياسي والواقعية ليدرك أن بقاء الخمارات وبيوت الليل هما من أعاد فتح أيا صوفيا للمصلين، وهي معادلة لا أستطيع شرحها، لأنها خارج نطاق السطحية العقلية والفهم المأفون للواقع السياسي والمجتمع في تركيا.. أما الغاضبون لأنها تفسد الحوار مع المسيحيين، وتمنحه كل الملل الأخرى للعدوان على المساجد وتحويلها إلى كنائس، فهؤلاء لا يعلمون أي شيء عن التاريخ، ولا يدرون حجم المساجد التي اعتدى عليها الغرب وحولها لكنائس، ولو أنهم أدركوا مخلصين مخبتين، لعلموا وقالوا: إن رد تركيا جاء متأخرا جدا جدا جدا.

ورب ضارة نافعة، فمع هذا الهياج العالمي حول هذا القرار، إلا أنه قد كشف أشياء كانت مجهولة للكثيرين، فبقدر ما اتخذ البعض هذا القرار وسيلة لتحميق وتشويه الإدارة التركية، إلا أنه كشف صفحة أخرى حاول الكثيرين اليوم أن يشوشوا عليها ويشوهوا صورتها وهي حقيقة الفتح العثماني للقسطنطينية، انظر هنا وبتمعن شديد، فهذا الفاتح المنتصر الغالب

بالسيف، الذي يتيح له هذا الغلب كل شيء، ويتيح له استباحة كل شيء، يذهب إلى القساوسة ويشتري منهم الكنيسة، ويدفع ثمنها من ماله الخاص، ويسجل ذلك في عقد مبروم، تشهد عليه الأيام والاجيال ليصير أعجوبة الزمان ومضرب الأمثال..!!

بل انظر إلى الجمال والمثالية، حينما اشترط عليه الرهبان في العقد إلا يزيل الايقونات المسيحية أو يكسر الصلبان وبالفعل كان يتم تغطيتها بالقماش طوال فترة عمل المسجد لمدة ٤٨١ سنة متواصلة.. قلي بالله عليك: في أي زمان يحدث مثل هذا؟ ومع من من الشعوب الغالبية والمغلوبة حدث مثل هذا؟ لكنه الفتح العظيم الذي جسد الإسلام بمثاليته وإنسانيته وعظمته في احترام الإنسان وتوقير آدميته.

يموتون عطشا ؟!

أتعجب لمن يموت عطشانا على شاطئ البحر؟! أو يرد الموائد ثم يتضور جوعا؟

أهناك من يصك الأموال ليل نهار ثم يتولى فقيرا مفلسا، لا يعرف كيف يغتني.؟

هذه الصور الحياتية التي تمتلئ حيرة وتتفجر عجا، ليست غريبة علي، لكنني أراها في صورة أخرى مماثلة، أراها في أولئك الشيوخ والدعاة الذي تزيوا بزي الإسلام وعباءة الدين، ولم يفهموا إلا أنه جملة من الأحكام والمسائل التي تروي أحاديث الطهارة والغسل من الجنابة.

أما أن يدركوا فيه معنى الولاء والبراء، ورد البدع والانحراف والزيف، فتلك أحاديث غريبة عن الدين الذي ألفوه وتعودوا عليه.

وهكذا الدين في فهمهم، لا يرتبط إلا بدورة المياه، والتنزه من الغائط، وهو الدين القيم الذي جاء لحكم الدنيا وإسعاد البشر.

كنا في قريتنا كلما تحدث خطيب في قضايا الفكر الإسلامي، ردته جمهرة من الأغبياء ليتحدث في الغسل والطهارة، لأنها في عرفهم الدين الذي عرفوه، فإذا انتهى منها، طلبوها مرة أخرى لأنهم ينسون، وهكذا يظل في دورة المياه لا يخرج منها أبدا.!

وهؤلاء عندي كمن يموت عطشانا على شاطئ البحر، وقد ضل عقله عن أن يمد يديه ليغترف منه غرفه، يمرر بها محنته وكبوته والنجاة من الموت الذي يغتاله.

وأمثال هؤلاء هم من عزلوا الدين، وكانوا سببا أن يفسحوا الساحة للملاحدة واليساريين، أن يلقوا شبهاتهم على الإسلام، بل إنني لا أبالغ إن قلت أن أمثال هؤلاء الشيوخ حلفاء للملاحدة في حرب الإسلام وتقليص نوره بين الناس، وقوامته للمجتمع فكرا ووعيا وحرية وسلوكا.

منذ برهة رأيت لقطة للمقرئ الذي يقدسه الصوفيون، ويعتبرونه أجمل من قرأ القرآن على الأرض، ويعلم الله أني لا أطيق صوته ولا سمته، ولكنهم يعظمونه لأنه في تيارهم وعلى صوفيتهم التي يبرأ منها التصوف الرشيد.. لقد لمح هذا المقرئ في العزاء الذي يقرأ فيه القرآن، حضور الممثل الشاب محمد رمضان، الذي مثل في زماننا كل دور للقدوة السيئة التي تحاكيها الأجيال، وتماثلها وتقلدها في كل التصرفات والفنون التي تجسدها دنيا البلطجة والإجرام.. المقرئ الذي يرتل القرآن ليل نهار، يحتضن الممثل الشاب بكل غرام وهيام وكأنه يحتضن إماما من أئمة الدين، ووليا مقدس الروح.. القرآن الذي يتلوه في كل موطن ويحفظه من ألفه إلى يائه، ويتغنى بآيته ويهيم بها حتى يخيل إليك أنه يذوب في معانيها، لم يدله أو يهديه أن يتخذ موقفا من داعية سوء وانحراف وسلوكيات معوجة، بل يحتضنه ولو طال أن يقبل يديه ورجليه لفعل.

منذ سنوات تعجبت لإعلامي تافه، وكان من قبل إماما لأحد مساجد الأوقاف، فهو إذن محسوب على دعاة الإسلام، وإذا به يستضيف ممثلة من ممثلات الإغراء والعري، ويصفها بأنها أعرف لله وأهدى للإسلام من كثيرين على درب التدين، وقلت ساعتها متسائلا، ما هذا الهراء، وأي ضلال وقع فيه هذا الجاهل بالإسلام؟! كان الأولى أن يردها عن تبرجها المفرط، وينصحها أن لا تظهر مفاتنها وتستر نهودها وأفخاذها اللامعة الممتلئة، وهي تمثل أفلاما تدعوا للتحلل والسقوط الأخلاقي، لكنه لم يفعل، وما كان له أن يفعل، ففتنة الدنيا وحب الظهور ذهبت بلبه، وأغرته حتى فهم الدين بشكل مقلوب.

ليس هذا الكلام حضا على الكراهية، ودعوة لبغض الناس، ولكنه دعوة لاحترام الدين والقرآن، وإنزالهما منازلهما الطاهرة الراقية التي تليق بمقام الألوهية، وأن أهل الله وأهل كتابه، يجب أن يكونوا بمنأى عما يناقضه ويخالف طريقه.

حتى الشعراوي ؟!

الدولة المصرية لها قيم وثوابت وأبجديات ومعالم تقوم عليها وتحيا بها، وعلى رأسها الدين والأزهر، بل منها وفيها الرموز الذين يمثلون هذه المعالم، والتي لا تقبل المساس بها او تقبيح صورتها، لأنه يعني في المقام الأول مساس بهذه الأبجديات.

الكاتب العلماني الفج الذي كلما ذكرنا اسمه أو نوهنا عن هرائه، جاءنا تحذير من الفيسبوك بالحظر والانذار، كتب مؤخرا مقالا يعرض فيه للدعاة في عصر السادات، وأخذ يكشف فيه عن علاقة الدعاة في هذا الوقت بجماعة تحظرها الدولة اليوم، لكن المفاجأة أنه أدرج اسم الشيخين الشعراوي وعبد الحليم محمود، ضمن العلماء الذين لهم علاقة بهذه الجماعة، ليخلص إلى هدف خبيث وهو أنهم ساروا في الاتجاه المنحرف، الذي نجني اليوم ثماره المرة حسب فهمه

بل ألقى اللوم على الدولة كلها، حينما أفسحت المجال لهذه الجماعه لتعمل وتنتشر.

ربما لا نستطيع النقاش معه في أمر الشيخين سيد سابق والغزالي، لكن المدهش أن الرجل يحاول أن يزج بكل عالم دين، ثبت تاريخيا أنه قابل إخوانيًا في الشارع ورد عليه السلام، في محاولة خسيسة رخيصة، لوضع وإدراج اسم هؤلاء الأعلام في خط التطرف والانحراف والإرهاب

لماذا كل هذا الجهد؟ ليضرب الرموز الإسلامية في الصميم، ومن ثم يضرب الإسلام نفسه، حينما تكون جبهته مكشوفه، بلا حصون ولا حراس، فهو يعتبر القرب من الاخوان سبة تهدم كل مكانة وكل قيمة.. والغاية التي يسعى إليها هذا الكاتب معروفة ومفضوحة،

فالرجل يزعجه تأثير الشيخ الشعرواي في ملايين المصريين، ودروسه التي ربطتهم بكتاب الله، وإطلالاته التي علمتهم الإيمان وعززت فيهم الهوية الدينية، ومن ثم يريد تحطيم هذا الأثر، والادعاء بهلوسات ملتوية، أن الشيخ له جذور تنظيمية، ثم عاب عليه سجوده في النكسة، وهو في رأيي عمل وطني من الطراز الأول، لأن هذه الهزيمة حفظت على دين الدولة وهوية الشعب وإيمانه، وهل كنت تنتظر منه أن يصفق ويبتهج وهو يرى البلاد كلها، تنسى الله والدين، وترتمي في أحضان الشيوعية، فتضيع الهوية؟! وهل الإيمان الذي هو طبيعة المصريين من عهد الفراعنة، سار اليوم عيبا في نظرك وتقييمك، وتغليبا للأممية الإسلامية على الوطنية المصرية؟

ولم يقف الكاتب عند هذا الحد، بل سارع ليدرج اسم الشيخ عبد الحليم محمود في الدائرة، وهو القامة العظيمة التي لها مكانة في قلب كل أزهري، بل كل صوفي، بل كل مسلم، لكنه فضح نفسه بنفسه، وعرى هدفه بغبائه، حينما أدان الشيخ بأنه كان على علاقة طيبة بمجلة الدعوة، وكان يكتب فيها مطالبا بتطبيق الشريعة الإسلامية، فالأمر إذن ليس في مجلة الدعوة والكتابة فيها، ولكنه لأنه كتب مطالبا بتطبيق الشريعة الإسلامية

إن هذا الرجل بما يكتبه ويطرحه، غريب عن البيئة المصرية، بلد الأزهر وحصن الدين، غريب عن طبيعة المصريين، التي تحترم علماء الدين، وتقدس هويتها الإسلامية، وتحترم المساجد وتتباهى بالمآذن، وتؤمن أن مصر بلد الإسلام. واجب على الدولة والحكومة أن تتحرك، لتوقف هذا المهرج ليكف قلمه عن العبث بقيم مصر وثوابتها ورموزها والمساس بهويتها، حتى لا يُحدث هو وأمثاله بلبلة في أفكار العامة، فينتشر الاستخفاف بالدين، وتكون بداية التفريط والانحراف، والتطرف الحقيقي الذي يقود الفجور في الحياة.

ثم كان من المضحك أنه لام الدولة أن تركت دعاة التنوير والتغريب في مرمى سهام دعاة الدين، مما أدى لتجريف العقل المصري والتضحية به في سبيل كسب ود بعض رجال الدين الذين لهم جماهيرية.. ونسي الواهم أن هؤلاء التنويريين، تآمروا ابتداء على مصر، وهم يحاولون سلخها من هويتها الدينية، ولولا حكمة السلطة في ذلك الوقت، واعتمادها على

هؤلاء الشيوخ الأماجد، لكانت مصر اليوم علمانية أو شيوعية، لا تعترف بدين ولا إله، ولا تقرب مسجدا ولا توحد خالقا.. لولا هؤلاء الشيوخ لضاع دين مصر، لولا الشعراوي وعبد الحليم محمود، لفقد الناس كثيرا من معالم وروح الإيمان، الذي هو عماد الحياة المصرية.

الرجل يعمد في مقالاته إلى أساليب ملتوية، تخدع الأغرار، لكننا لها على يقظة تامة، نوجه إليه سهامنا في مقتل، ونفضح غايته التي يحاول التواري عنها، وهي كرهه للإسلام نفسه، الذي هو من معالم مصر، وحجر أساسها، وأي محاولة لتجريدها منه، فليس في صالحها، ولا يفيد شعبها في شيء، بل يضره ويفسد حياته، ويقوده لمصير قاتم أسود، بل يقوده لفتنة عظيمة تذهب معها البلاد في مهب الريح.

حفظ الله مصر المسلمة، وحفظ أزهرها وعلماءها.

المتحضرون الكاذبون

هناك عالم مجهول لا ندري عنه شيئا، ولا ندري كيف ينظر لنا وإلينا ويعتقد فينا نحن الشعوب المسلمة.

هل تتخيل أن الغرب قد نسج حول الإسلام كثيرا من الخرافات الكاذبة، حتى يظهر لمن يعيشون فيه أنه دين هراء، وأن المصدقين به قوم بُله لا عقول لهم.. يفعلون ذلك ويروجون له حتى لا يرون للإسلام تميزا أمام ما تعج به أديانهم المحرفة من خرافات وقصص وادعاءات لم ينزل بها الله، أو يقرها وحيه أو يتقبلها أي عقل حر به مساحة من تأمل وتبصر.!

وعلى قدر ما تقدم الغرب في العقول والاختراعات فإنه يثبت كثيرا أنه ساقط بجدارة في ساحة الأخلاق والإنسانية والتعامل مع البشر والحقائق الأخرى.

لقد أرادوا أن يصيبوا الإسلام ببعض ما فيهم، ويروجون لشيء من التسفيه والسخرية حتى تنهض العقول الغربية وتتحمس لاستنقاص العقل العربي المسلم، وتنظر له نظرة ازدراء تساوي تماما نظرتنا لعباد البقر وشراب أبوالها والساجدين للأصنام.

الدكتور عبد الودود شلبي وهو علم كبير ومفكر ألمعي أعده من حراس الإسلام الأقوياء في الفترة الماضية وله مصنفات شاهدة على حسن بلائه في الدفاع عن العقيدة والدين.. وله كتاب قيم لابد من قراءته وهو (أبو جهل يظهر في بلاد الغرب) كتاب ألمعي رائق الفكرة والمعلومة عميق المعنى والمغزى.. ولكنه في ذات الوقت مؤلم محزن وهو يضع أيدينا على هذه الحقيقة المرة، التي يفتريها الغرب على ديننا ويشوه بالأكاذيب نصاعته أمام الأجيال والعقول، حتى ينفض الناس عن مجرد إنصافه لا الدخول فيه.

ومما جاء فيه أن مسلما مصريا سمع مدرسة أمريكية تقول لتلاميذها في أحد فصول الدراسة: إن الإسلام حرم لحم الخنزير وشرب الخمر لأن محمدا أي رسول الله صلى الله عليه وسلم سقط على الأرض مرة من شدة السكر، فنطحه خنزير كان يمر مصادفة في هذا الوقت.! وبسبب هذا حرم محمد أكل لحم الخنزير وشرب الخمر.!

فقال لها الشاب المصري المسلم:

إن هذه القصة كذب في كذب ولا تمت للحقيقة بصلة ولا نسب.!

فقالت له المدرسة: إنني آسفة إني أسمع هذا الكلام لأول مرة.

فقال لها الشاب المسلم: بعد أن عرفت الحقيقة، هل تتوقفين بعد ذلك عن رواية هذه القصة؟ فقالت المدرسة: بالطبع لن أتوقف لأنني أتقاضى مرتبي وأعيش على تدريس هذه الخرافة وهذا الكذب.!

وهكذا يقتاتون الإفك ويدعون الزور والخرافة على الدين الذي احترم العقل ودعا للتفكير وانتهج الحوار وتعاطى المنطق والدليل.! وعلى الرسول الذي كان آية الله تهدي الحيارى والمعذبين.

فما أتعس المخادعين، وما أحقر الانسان الكذوب.

كان الكونت هنري كاستري حاكما للجزائر وكان ممن أعمت الكنيسة ابصارهم وبصائرهم عن الاسلام حتى لا يروا نوره الباهر، الا انه درس الاسلام دراسة عميقة، وكتب عنه كتابا قيمًا يتسم بالصدق والحقيقة، وقصة تفكيره في دراسته للإسلام قصة طويلة، حيث كان من كبار الموظفين بالجزائر ورغم سنه المبكرة وكان يسير ممتطيًا ظهر جواده ويسير خلفه ٣٠ من فرسان العرب الاقوياء فخورا بمركزه، وكان يملأه الغرور للمدح الذي يزجيه إليه هؤلاء الذين تحت إمرته، وفجاه وجدهم يقولون له في شيء من الخشونة وفي كثير من الاعتداد بالنفس، لقد حان موعد صلاه العصر، ودون ان يستأذنوه في الوقوف ترجلوا واصطفوا للصلاة متجهين الى القبلة ودوت في ارجاء الصحراء كلمه الاسلام الخالدة.

شعر الكونت في هذه اللحظة بشيء من المهانة في نفسه، وبكثير من الاكبار والاعجاب بهؤلاء الذين لا يبالون به، ذلك لأنهم اتجهوا إلى الله وحده بكل كيانهم، وبدأ يتساءل ما الاسلام؟ هو ذلك الدين الذي تصوره الكنيسة في صوره بشعه تنفر منها النفس ولا يطمئن اليها الوجدان.؟ وبدأ يدرس الاسلام وتغيرت فكرته عنه، ورأى من واجبه أن يعلن ما اهتدى إليه، فكان كتابه الذي ألفه [الاسلام خواطر وسوانح] وفي هذا الكتاب الطريف تحدث عن الكثير من جوانب الاسلام سواء كان ذلك فيما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم او فيما يتعلق بتعاليم الاسلام، وقد تحدث فضلا عن ذلك عن أراء مواطنيه خصوصا القدماء منهم في سورة من السخرية والتهكم، فقد قالوا: إن محمدا وضع دينه بادعائه الألوهية وقالوا: ان محمدا الذي هو عدو الاصنام ومبيد الاوثان، كان يدعو الناس لعبادته في صوره وثن من ذهب.!

وقد بدأ الكونت يُسائل نفسه: لماذا هذا التضليل والزيف ولحساب من تلجا الكنيسة الى هذه الاكاذيب التي لا يقبل بها عقل.؟

مبددون لا مجددون

كثيرًا ما يحار المرء في هذه الآراء الغريبة، والأفهام المعوجة، التي تظهر على الساحة من أناس يزعمون أنفسهم أدباء ومفكرين وعلماء وربما فلاسفة، رجل منهم يأتى ليخوض في مفاهيم الدين، فيطيح بثوابته ويهدم أصوله، ويهرف فيه بأهوائه، ويفتي بأوهامه في أحكامه، ويعرض فيه عن فهم علمائه، ثم تظهر حوله حفنة من الأغبياء القاصرين ضعفاء التمييز والعلم والهوية والانتماء فيهللون له ويصفقون، ويظن المخابيل أن سيدهم وعبقريهم مجدد في الدين، ويعيد قراءته قراءة جديدة، تحارب الجهل والجمود والتخلف، وتحديدًا يذكرون هذه العبارات، حتى تكون حافزًا للدعاية له، وحتى تُوهِم الأُميين أن الرجل مظلوم، وأنه فعلا وحقًا عبقري الزمان والمكان.. وعاقل الامة ومهديها المنتظر.!

ديننا والحمد لله قد اكتمل بتفسيراته واجتهاداته من قديم الزمان، وخرج منه الأئمة والمجددون الذين عرفوا وأظهروا قيامه المتوافق مع روح العصر الحديث، وشرحوا للناس جماله وهو يؤيد فطرة الإنسان، ويقبل ولا يعارض كل جديد من شأنه سعادة البشر، ولا يتعارض مع حياتهم وقيمهم.

ولكن حجة التجديد، والدعاوى بأن الدين يحتاج لتجديد، تظل هي الخدعة التي يلجأ إليها هؤلاء الماكرون حتى يضللوا كثيرا من الناس والجهلة على الخصوص.!

والمحزن في الأمر، أن هذا الرجل يرتكب جرائم في حق الأمة والتراث والدين، ومع ذلك ينعتونه بأفخم لقب في الإسلام وهو لقب المجدد، وليتهم وصفوه بأنه مفكر أو عالم أو حتى فيلسوف، وإنما أصابتهم جرأة عارمة فائقة، وهم ينعتونه بلقب المُجدد مرة واحدة.. والحق أنه مجدد، ولكن ليس في الدين أو للدين، وإنما مجدد للطعن في الدين، والنيل من الدين.

كثيرون في هذا التوقيت الذي يعلوا فيه لفظ التجديد والنداء به، في حاجة لفهم معنى ومفهوم التجديد، فليس التجديد أن أزيل الشيء كليًا وآتي بغيره جديد، ولكن التجديد أن ألمعه أو أرممه وأعيد له بهاءه كما كان، هذا هو المفهوم الواضح من كلمة تجديد الشيء.

وما يفعله كثير من هؤلاء الخاسرين إنما هو هدم وتبديد لا تجديد.

نعم فأحدهم تراه يُنادي بإلغاء البخاري أو حذف أحاديثه، وأحدهم ينادي بإلغاء السنة والأخذ بالقرآن فقط، وثالث يدعي أن التاريخ مزور، وأنه مكتوب بالهوى والكذب، وآخر يدعو لرمي تراث الفقهاء واجتهاداتهم، وآخر يحذر من التراث وما فيه من كتب وفتاوى تهين الإنسانية وتزدري الإنسان، وآخر يؤول النصوص تأويلا مجردا من أي سناد شرعي، مجافيًا روح الإسلام.. وسفيه يخرج على الناس بالكذب الذي يشوه تاريخ العظماء من أمتنا ويسيء إلى قادتها المجاهدين الفاتحين، تهم كثيرة وأباطيل متعددة يتشبث بها هؤلاء الأدعياء.

وكما قال أحد شيوخنا: " العجيب أن هذا المُدعي لا يحسن أن يقرأ آية صحيحة، ليس فقط لأنه لا يحفظ القرآن، بل لأنه لا يعرف مرفوعا من منصوب، ولا فاعلا من مفعول!"

وبعض هؤلاء يبيع عقله وفكره وما لديه من علم إن كان لديه علم، إلى جهات صليبية تغريبية إلحادية، أو سياسية، تريد تنفير الناس من الدين وضرب مفاهيم العقيدة، وإيهام الناس بأن دينهم معوجًا ويحتاج للتصحيح، ومن ثم ينفضون عنه كلية، يبيع دينه وشرفه من أجل المال والشهرة، تماما كما يبيع بعض الكُتاب قلمه لمآرب الدنيا.

ويظل العيب أولا وأخيرًا فينا نحن، لا في هؤلاء! حينما عرفوا أننا جهلاء بديننا.

وحينما رأوا كيف يُحاصر علماءنا.

وحينما رأوا القنوات والفضائيات تفتح لهم ذراعيها ليهرفوا بهذا الخرف تحت عنوان التجديد والفكر والاجتهاد..

العيب إذن فينا نحن.. قبل أن يكون فيهم.

عجائب القرآن

لعلنا اليوم نجاهد ونكافح من أجل أن ترق قلوب الناس للقرآن الكريم، فيقبلون على قراءته والمداومة على ذكره، والأنس به.!

لكن.. هل تعتقد أن هؤلاء القراء قد نالوا غايتهم وغرضهم من القرآن الكريم؟

هل فهموه فعلا حق فهمه وتأملوه واعتبروا بقصده ومراميه؟

أعتقد أن القرآن الكريم مهما كان لفظه واضحا ومعناه مفهومها، إلا أن هناك عوالم خفية، لا يتناولها أو ينبئ بها اللفظ الصريح، الذي يختبئ وراءه عجائب ومدهشات من العلم والمعرفة.

وهي الثقافة التي لن نقف عليها إلا من خلال كتب التفسير.

شيء محزن أن يعيش المرء حياته، ولا يمتلك كتاب تفسير واحد، مما تذخر به المكتبة الإسلامية، وكتب التفسير لابد من اقتنائها لا لفك شفرات الغموض من ألفاظ القرآن وجمله، ولكن لابتغاء المزيد من الهداية والرشاد.

إن من يقرؤون القرآن يتشابهون تماما مع هؤلاء الذين يقفون على شاطئ البحر، دون أن يخوضوا لجته ويغترفوا من معين خيره وأرزاقه، إنهم لم يغوصوا في أعماق هذا البحر، ليكتشفوا أسراره، وما فيه عوالم أخرى مما خلق الله تعالى، فهل يعد هؤلاء عالمون بالبحر وخفاياه؟ ابدا إنهم لا يعلمون عنه أي شيء، لانهم سطحيون لم يجاوزوا شاطئه..

وعجبا لأولئك الذين يجاهدون أنفسهم، ليقرؤوا أكبر كم من أجزاء القرآن وسوره، وينافسون فيه أندادهم، ويسابقونهم في العدو على صفحاته، ولا يجاوز حناجرهم، ولا يجنون منه إلا أنه يمر على ألسنتهم فقط، دون أن تعمل فيه عقولهم وتنفعل له قلوبهم.

قال أسلم بن عبد الملك: صحب رجل رجلاً شهرين .. فما رآه نائماً ليلا ولا نهارا .

فقال له : مالي أراك لا تنام ؟ فقال : إن عجائب القرآن أطرن نومي: فما أخرج من أعجوبة إلا وقعت في أخرى .. لقد غاص الرجل في أعماقه . فمنحته الأعماق ما فيها من لؤلؤ ومرجان . بهر الرجل بل أطار النوم من عينه.

إن هذا الرجل المؤمن الراشد كما وصُفه الواصفون بقولهم: "واحد من قافلة الإيمان .. الذين صار القرآن حياتهم هدى.. وشفاء.. وبشرى

بينما يجلس السطحيون على شاطئ القرآن.. لم يكشفوا عن ساق ولم يشمروا عن ذراع، قابعين على الشاطئ.. قانعين بحمام الشمس .. والهواء .. ظانين بأن مجرد تلاوته كافية للحصول على ما في الأعماق من أسرار."

انظر لهذا النص الذي نقله صديقنا د- هاني درغام، و يا له من نص يستحق التأمل لأحد المفسرين البصيرين العصريين إذ يقول:

"إن من التيه الذي أصابنا أن ننظر في الموضوعات والمفاهيم في كل كتاب، فإذا أرادت أيدينا أن تمتد إلى رف كتب التفسير ثنينا عطافنا وانصرفنا ، ربما ظنًا منا أننا لسنا أهلاً لقراءة هذه الكتب ! لكني أقولك لك : كف عن هذا الورع البارد ، واعمد إلى كتب التفسير ، فاجعل لنفسك منها نصيباً ، واقتنها وزين بها مكتبتك ، وطالعها كلما عنّ لك إشكال في فهم المعاني واستنباط الفوائد ، وارجع إليها كلما أردت البحث عن مسألة أو موضوع ، واجعل لنفسك نصيباً من القراءة المنهجية فيها ، ولو دورة واحدة في العام ، فإن أعظم غبن هو أن تموت وأنت لم تعرف حقائق القرآن ولم تفهم مرادات الله تعالى"

صنفان زادونا أرقًا

في حياتنا الفكرية نعاني من مشكلتين أو صنفين من الناس، زادونا أرقا كبيرا وعنتا مرا، وهم لا يستوعبون أبدًا أن الدنيا تتغير والمبادئ تتباين، والعقائد تختلف، والظروف لا تتوافق، ويصرون أن يتعاملوا في الحياة بمواءمات لا تليق بها ولا تناسب زمانها، وليست منها في شيء.!

وكان الصنف الأول من هؤلاء هم السلفيون أو بعض منهم، الذين توقف علمهم ودرايتهم ومداركهم عند مرحلة الإمام أحمد بن حنبل وتاريخه وعلمه ومحنته، ويريدون للحياة والدنيا وجميع الخلق في بلاد الإسلام أن تعيش هذا التوقيت، حتى بعد تغير الدنيا والانتقال إلى عالم الفضاء والانفتاح والتطور، نعم.. فهم يتصورون المعتزلة مازالوا قائمين ويتخيلون أن محنة

خلق القرآن مازالت حاضرة ينادي بها أربابها، ويتصورون كذلك أن أحمد بن أبي دؤاد مازال يرغم الناس ويجبرهم على البدعة. ومن العجيب أن أحدهم لو تعرض لضرب السياط وجلد الجلادين كما تعرض أحمد، لباع دينه بدنياه ونسي ما كان يدعو إليه.

وترى الشباب الناشئ فيهم لا يتربع في خياله من محن الإسلام، غير محنة خلق القرآن، ولا من أئمة الدين غير الامام ابن حنبل فهو يتخيله ويتقمصه، بل هو يستمتع حينما ينطق لسانه بكلمة بدعة وينتشي إذا لفظ بكلمة حرام، يجد لها مذاقا خاصا في وجدانه فهو يعشقها ويهيم بها.. ومهما بينا لهم وأفصحنا لهم أن هذا الزمان قد ولى، وأن أيام ابن حنبل قد ذهبت، ومحنته قد عفى عليها الزمن، وأنه لا ينادي الان أحد بخلق القرآن لا يستجيبون ولا يستهدون ولا يقتنعون، وينطلقون في غيهم يحكمون على الناس ويصنفونهم ويملؤون حياتهم بالتبديع والتفسيق والتجريم.

أما الصنف الثاني وهم قطاع كبير من المتغربين نشأوا في بلادنا وتسموا بأسماء ديننا إلا أنهم يتعاملون مع الإسلام وعلمائه ومذاهبه تعاملهم مع الكنيسة وأحبارها ومذاهبها ويظنون أن الإسلام والكنيسة وجهان لعملة واحدة ويقودان لمصير واحد وأنه كما تمرد الغرب على الكنيسة فلابد أن يتمرد الشرق على الإسلام، لأنه ظلام وجهل يحجب أشعة النور وضياء التنوير، ومهما صرخنا فيهم وزعقنا بأعماق أصواتنا بأن الإسلام غير الكنيسة التي يتسلط فيها الكهنوت على عباد الله، ويملك فيها السدنة والاحبار صكوك الغفران، وأنه ليس معنى كونه دينا أن يتشابه ويتوافق مع هذا القهر الذي مارسته الكنيسة على شعوبها التي انفجرت عليها، فإنهم لا يفهمون ولا يستجيبون ولا يقتنعون، ويصرون على خطيئتهم في حرب الدين والتصدي لدعوته وهديه بين الناس.

إن الصنف الأول أسرى اللحظة التاريخية، حينما توقفوا عند "فتنة خلق القرآن" وزمن الإمام أحمد بن حنبل، واستحضار معارك منتهية الصلاحية، ومشكلة هذا الصنف ليست في حبهم للتراث، بل في استيراد الأزمات هم يسحبون معارك القرن الثالث الهجري كمعارك المعتزلة والجهمية، ويسقطونها قسراً على واقعنا المعاصر الذي يعاني من الإلحاد

المادي والعدمية، وهما أخطر بكثير من خلافات كلامية قديمة، بل يخلطون بين الدين والتاريخ، فيقدسون تاريخ المسلمين وكأنه الإسلام نفسه. الإمام أحمد رجل عظيم، لكنه رجل مرحلة واجه تحديات زمانه، وتجميد العقل عند لحظة صراعه يعني العجز عن إنتاج أحمد بن حنبل جديد لعصرنا، الذي يواجه تحديات الذكاء الاصطناعي والهندسة الجينية لا تحديات المعتزلة.

إن فقه الواقع يشهد غيابا كبيرا بل يكاد معدوما عند كثير من الفئات المتسلفة، الذين يملكون فقه النصوص ويحفظون الكتب، لكنهم يفتقدون فقه الواقع، ويخلقون صراعا لا يناسب الزمان والمكان، كالذي يصف دواءً صحيحاً لكن للمرض الخطأ.

أما الأوروبيون الذين يريدون استنساخ تجربة أوروبا وسيتخضرون صراعها مع الكنيسة ويجعلون الإسلام في بلدانهم محل الكنيسة والقائم بوظيفتها من العماية والتغييب والتجهيل، فهذا تخبط ومغالطة في القياس، فأوروبا ثارت على الكنيسة، لأن الكنيسة في القرون الوسطى حاربت العلم واحتكرت الحقيقة ومارست صكوك الغفران، أما الإسلام في تاريخه فكان حاضناً للعلم، ولم يكن فيه "كهنوت" يتوسط بين العبد وربه. لذا، فمحاولة تطبيق الصدام مع الكنيسة على الجسد الإسلامي، خطأ فادح، وهم يقلدون الغرب تقليدا أعمى، تماماً كما يقلد الصنف الأول القدماء تقليداً أعمى.. كلاهما عقل بلا تفكير.

هل يعلم الأموات بأحوالنا؟

مازال فينا ومنا وحولنا قوم يصرون أن يشغلونا عن قضايا أمتنا المصيرية، ومعاركها الكبرى، كأنهم يحاولون الهروب من الوقوف على الفشل الذي منينا به، وبدلا من أن يصرفوا جهودهم في استنهاض الهمم، وارتقاء العقول، وتنقية الوعي، تهذيب الأفهام، يحلوا لهم دوما أن يسرحوا بنا في قضايا علمية، واختلافات فقهية، من العيب الكبير أن يقوم لها بيننا كيان، وسط هذا التأخر والتراجع الذي اجتاح حياتنا.

وقد أعجبني ما قرأته يوما عن الإمام العز بن عبد السلام:

من دخل قرية فشا فيها الربا، فخطب فيها عن الزنا، فقد خان الله ورسوله.

انظر حولك، وتأمل ماذا أصابنا من بلاء، ففوق جهالة قطاعات كبيرة من الأمة بما يجب علينا من الأولويات، صار فينا أبواق سوء مأجورة، تدفعنا لنوغل في الحديث عن هذه القضايا الهامشية الترفيهية دفعا، لنغيب ونغط في إحساس الغفلة، ونبتعد كثيرا عن داءاتنا المرة، فترى كل يوم زنديقا من الزنادقة، يخرج على الشاشات بشبهة في حكم فقهي، أو فتوى غريبة شاذة، أو طعنا في هدي من الهدايات جهلا وعدوانا، وينخدع المسلمون الذين يهاجمونه دفاعا وزودا عن دينهم، بينما تصفق قوى الظلام لنجاح خطتها في شغل الجماهير بهذا الهراء عن معارك الوعي والمصير.

وتعذر طائفة من المفكرين وهم يعز عليهم أن يروا هذا اللغط المثار في حكم من الأحكام ولا يردون.. يردون مضطرون، بينما تئن قرائحهم أن تضيع جهودهم في هذا الزيغ.

حضر أحد المشايخ الكبار مجلسا علميا، وكان من قادة المفكر المشاهير، وبعد أن ألقى كلمته، انتظر أسئلة الحاضرين، التي توقعها أن تكون حول أزمة الخليج التي هزت وجود الأمة وقتها وهددت حاضرها ومستقبلها في منذ ذلك الوقت.

ولكن تخيل ماذا كانت الأسئلة من الجمهور الحاضر؟

لقد دارت كلها حول الأرواح والموتى هل يعلمون بأحوالنا ويستغفرون لنا، أم أنهم لا يعلمون؟ وأخذ الشيخ يبث شكاته حينما كانت الأحداث أليمة ولم تزل شديدة الإيجاع، لقد جاءه السؤال من واد آخر، وكانت محنة أن العدد الذي تقدم به كبير يصعب تجاهله.

أيقن الشيخ في قرارة نفسه أن أمة بهذا الفهم وهذه الغفلة، كفيلة أن تهزم وتكون مضغة هينة بين فك الأعداء.

تريث في الإجابة كارها للسؤال وأصحابه، حينما رآهم مشغولون بما وراء المادة، لا بالمادة نفسها، وبعالم الغيب لا بعالم الشهادة.

واضطر أن يجيب ويوضح، حتى حدث خلاف علمي بينه وبين بعض المناقشين الذين كرهوا قوله واعترضوا على رأيه.

ثم اعترف بأنه ما ساءه أنهم كرهوا كلامه وخالفوه، بقدر ما ساءه أن يكون الناس في واد، ونحن في واد آخر، نتجادل في أمور لا خير فيها ولا طائل من ورائها، نتخاصم ونتقاتل على تقصير شعر اللحية أو تطويله، وننسى الدواهي التي تزلزل البلاد والعباد.

الصحفي ليس عالماً

هل تصدقني لو قلت لك: إن الدين علم له أصول وقواعد وشروط وأسس يجب المرور عليها حتى تفقه هذا الدين، وتدرك مرامي شريعته، وأبعاد ملته وروح أحكامه، شأنه في هذا شأن كل علوم الدنيا من طب وهندسة وفلك وكيمياء.

نعم أخي.. هكذا الدين وليس هو أبدا ما تصورته أو يتصوره البعض: من أنه عملية سهلة ويسيرة يمكن لأي أحد ما دام ينتسب للإسلام، أن يفتي فيه ويتكلم في أصوله، ويهرف في أحكامه بما لا يعرف، ويسير فيه بقلبه وهواه، فهناك فرق بين الدين كهداية واستجابة وطاعة لله، وهي التي يمارسها كل الناس، وبين الدين كمِلة وشريعة وعلم وفتيا، لا يستطيع أحد أن يقترب منها إلا العلماء الذين أثبت الله وجودهم ومدح سعيهم وأكد على أهميتهم في أكثر من آية في كتابه العزيز.

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟

منذ أيام كتبت مقالا عن رحيل كاتب علماني، وقد أكدت أننا نرجو له المغفرة والرحمة، فقلوبنا تسع كل البشر، ورغم أن الرجل كاتب علماني، وأحب أن أركز على كلمة علماني بدقة، لما لها من أبعادها الدقيقة، التي سأخلص إلى بعض نتائجها في النهاية.. لم نجنح أبدا لتكفير الرجل، ولم أر أحدا من الغيورين على الدين قام بتكفيره، لكن بعضا من كتابنا المحترمين يُصر على أننا نكفره ونخرجه من ملة التوحيد، ورغم أن هذا كائن في أقوال أهل

العلم، الذين هم أعلم الناس بالعقيدة وضوابطها، إلا أننا أبدا لم نجنح لتكفيره، ولا نحب أن ندرج هذه الكلمة في قاموس أقلامنا، لكن الرجل أنكر بعض الثوابت الدينية التي نص عليها الكتاب والسنة، ومع هذا، يصر بعض الكتاب، أن يجعل فعلته المنكرة، بمثابة من أنكر حكما فقهيا مختلف فيه.

لكن الفرق هائل، والحديث متباين، فما معنى أن أؤمن بالله تعالى، ثم أقبل من الدين ما أشاء وأرفض منه مالا يناسبني؟

ما معنى أن أوحد الله، ثم أقول له: معلش يارب أنا مؤمن بيك، لكن لا أصدقك في هذا الأمر.

إنه دين الهراء والمهزلة.

إن دين الهوى والمساخر.

وهو نفس ما كانت تفعله بنو إسرائيل حينما وصفهم الله بقوله مستنكرا فعلهم الأثيم: (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض)

وهكذا الدين أو هكذا أحكام الدين وثوابت المعتقد، إما أن تقبلها جميعا أو ترفضها جميعا، لا خيار لك ولا مزاج حتي تتألى على الله تعالى.

وهذا بالضبط ما فعله وحيد حامد، آمن بالله ورضي به، وصدق بأركان الإسلام، لكنه رفض منه أشياء، بدعوى الفكر والرأي، لكن الإسلام لا يُقبل بهذه الطريقة، ولا يرضاه سبحانه، والهوى فيه هو سلطانك وإلهك!

نقطة أخرى مهمة.. وهي حينما أقول لك: اذهب إلى العالم الفلاني لترى قوله في الحكم العلاني، فليس معنى هذا أنني أسوقك لرأي هذا العالم الذي هو اجتهاده الخاص والنابع من ذات نفسه، وأطالبك بتصديقه، وإنما أرسلك له حتى، ترى جمعه للأدلة وإحصاءه للبراهين الإلهية في المسألة المطروحة، وتفسيرها لك في ضوء اللغة والدين.

العالم هنا لا رأي له ولا كلام في كثير من قضايا الدين، إلا مسألة الجمع والتأليف، فقط لا غير، وليس معنى أن نذهب لسؤاله أننا نصبناه إلها مقدسا يعبد من دون الله تعالى.

وهذا تحديدا ما عابه بعض الكتاب النابهين الذين نحترمهم على المتحدثين في رحيل هذا الكاتب، حينما استهجن سؤال العلماء في الأمر، حيث يعتقد كاتبنا المحترم، أن المسلم مادام لم ينكر أركان الإسلام وأسسه، فلا يكون كافرا أو مرتدا أو غير مؤمنا، وعلى حسب فهمه، يمكن للمسلم أن يبيح يشرب الخمر، ويجيز الزنا والربا، وينكر تحريم هذه الأشياء، بدعوى أنها حرية شخصية، وكلها أشياء لم ترد في أركان الإسلام، وما دامت كذلك، فلا يكفر فاعلها ومنكرها، وهو فهم لم يقل به مسلم من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نصت عليه الشريعة منذ يومها الأول، ومن ثم كان الاحتياج الكبير للعلماء، ليوضحوا لنا الدين، ويفهمونا شروط العقيدة.

جادل العلماء كما تشاء، ارفض أقوالهم كما تريد، لكن أن تتجاسر على النصوص، وتتطاول الثوابت، فهذا ليس مقبولا..

كيف يجترئ مسلم على رفض أحاديث متواترة، في موضوع نص عليه الكتاب والسنة، بل كيف يكون مسلما بهذه الطريقة المزاجية؟

لعله فعل ذلك جهلا فنعذره لجهله، ولكن الرجل كان عامدا متعمدا، لكل حرف نطق به أو كتبه.

مرة أخرى أؤكد أننا لا نكفر أحدا نطق بالشهادتين، لكننا نؤكد أنه أتى بأعمال الكفر، وهناك فرق كبير في تناول الألفاظ بهذا الشكل، حسب ما درسنا في الأزهر، وحسب ما تلقينا على يد شيوخه، الذين هم أبعد ما يكونون عن التيار الإسلامي، الذي تنسب إليه مسألة التكفير ظلما وبهتانا.

يمكن للكاتب الراحل أن يكون كاتبا أو صحفيا أو لديه شيء من الفكر، لكنه أبدا لا يمكن أن يكون من علماء الدين، حتى يجترئ على النصوص ويرفضها جهلا منه أو عمدا.

لسنا دعاة تكفير، ولا نكفر مجتمعات المسلمين، وإنما بكل هدوء نقول للمخطئ: لقد فعلت فعلا من أفعال الكفر.

إن الكاتب الراحل قد غره قلمه، وغره تصفيق الناس له، وظن أن ما ناله من رتب، تؤهله للخوض في غير ميادينه، ونسي أن كل معرفته بهذا الدين ليست إلا معرفة العوام ..وهناك شيء مهم جدا، لا يجب إغفاله، وهو أن وإنما المعركة مع كاتب علماني يرفض الوجود الإسلامي برمته، والحديث في هذه الأمور يطول ويطول، ومجالها وعر دقيق، قد لا تجعله مجرد مسلم أخطأ، وإنما تجعله من المتآمرين على هذا الدين نفسه.

لقد ترك الكاتب بموته عده رسائل، ولعل أهمها، أن يتنبه الكاتب والصحفي لتغرير القلم، الذي يمكن أن يسول له يوما، أنه قادر على الحديث في الدين أكثر من شيوخه، وأنه أفهم لهذا الدين أكثر من علمائه.. لتكون النتيجة في النهاية ضلال في ضلال.

أي تراث يا شيخ الأزهر؟

أحدثت كلمة شيخ الأزهر الأخيرة في رده على الدكتور الخشت صدى كبيرًا ودويًا واسعا، وتركت الناس ما بين مؤيد مفتون ومعترض رافض ساخط لكل ما يأتي به شيخ الأزهر، حتى ولو أنه قام بفتح القدس، فلن يقبل منه هذا الفتح، ولن يقبل منه أي حسنة، لأنه سقط عنده ابتداء لمواقف يعلمها ونعلمها..

لكن.. دعوني أنتقل لمنطقة أخرى، في غير هذا الاضطراب، فأنا لم أخرج بعد من ساحة المعركة، وما زلت ناصبا سيفي ودرعي، أقاوم به كل انحراف واعوجاج يمس تراثنا وهويتنا..

هل تعلم أن الذين اعترضوا على شيخ الأزهر وسفهوا كلامه صنفان من الناس، الأول منهم شباب الحركات الإسلامية الذين يرون في نظرهم له أنه لم يقف في صف الحق، ثانيا العلمانيون واللادينيون المعادون لتراث الأمة الإسلامية وهويتها ومجدها وقيمها وعزها التليد الذين ويتنكرون لأي مكرمة فيه.!

ولو أنني ساقني الحديث لتناول أفكار الصنف الأول، فإني أعتبر نفسي خرجت من المعركة، لكن نضالي الحقيقي مع الصنف الثاني، الذي قال أحدهم معقبًا في صفحته على كلمة شيخ الأزهر بقوله:

(عن أي تراث تدافع يا صاحب الفضيلة: تراث بيقول إن مدة الحمل قد تصل الى سنين أو ٧ سنين، عن تراث كفروا فيه الامام الاعظم أبو حنيفة مرات اثناء حياته والالاف المرات بعد موته وتمت استتابته من الكفر مرتان وهو حى لان الامام الاعظم أبو حنيفة لم يقبل من مروياتهم عن رسول الله الا ١٧ حديث وفقط بنى عليها كل مذهبه، عن اى تراث تتحدث عن تراث كفر فيه الحنابلة الامام مالك امام دار الهجرة لأنه رد عليهم حديث البيعان بالخيار وقال الحنابلة ييستتاب والا قتل؟ عن أي تراث تتحدث يا شيخ الازهر عن تكفيرهم وقتلهم للإمام الطبري أعظم من فسر القران بالأثر، عن أى تراث تتحدث يا شيخ الازهر عن ضرب الامام الشافعي بالأحذية فى مسجد عمرو بن العاص حتى الموت لأنه خالف فقه الامام مالك اللى كان منتشر فى مصر وقتها، عن أي تراث تتحدث يا شيخ الازهر عن المخبول بحكم ائمة المذاهب الاربعة ابن تيميه اللى قال يستتاب والا يقتل ٤٢٨ مرة فى فتاويه، عن أي تراث تتحدث يا شيخ الازهر عن تراث مكتوب فيه حرق المرتد بالنار حيا، وطبخ راس مالك بن نويرة واكله وقتل ٧٠ الف من نصارى الغساسنة، عن اى تراث تتحدث يا شيخ الازهر عن اكل لحم الاسير؟ قل لينا يا صاحب الفضيلة؟!).... انتهى

والحق أن هذا الكلام على قدر ما فيه من تجن واضح، وهرطقات غير حقيقة وواقعية بل يوجد به قدر كبير من التناقض والتخبط والشعور بكلمات لا تعرف ماذا تقول؟ ولا تقدر على التعبير عن شيء تراه في مكنونها، غير أنني أتلمس وأتحسس وأشم شيئا مهما يجب التركيز عليه، ومحاولة التنويه على خطورته وتصحيح مساره.! بادئ ذي بدء أننا يجب أن نكون منصفين وأصحاب عدالة في نظرتنا للتراث فلا نجزئه ولا نفصله، فحينما أقوم بنقد آراء شاذة وغير مقبولة في هذا التراث فهذا حقي، لكن حينما أستغل هذه الهنات وهذه العثرات في هدم التراث كله فلا شك أنني هنا صاحب غرض آخر وهو أنني كاره ومبغض

لحضارة وهوية هذه الأمة وأستغل الظروف وأتتبع السقطات لأهيل التراب على هذه الهوية برمتها وهي مأساة أخلاقية فكرية بكل المقاييس.. فيجب إذن أن تكون هناك نظرة موضوعية حكيمة راشدة منصفة معتدلة حتى يكون التقييم صحيحا ومعتدلا وصادقا وعقلانيا جيدا.

نقطة أخرى مهمة جدا جدا وهي: من الخطأ الفادح أن أفصل التراث فأقصد به فقط كتب الفقه والدين والعقيدة، وأفصل عنه وأبتر منه كتب العلم والطب والفلك والمصنفات التي ألفت في كافة العلوم الدنيا والتي كانت سببا مباشرًا وقويًا في تقدم العالم ونهوضه من براثن الجهل والتخلف.! فهذه قسمة ضيزى وغير منصفة أو عادلة، فالتراث العربي الإسلامي هو مجمل كل هذه العلوم وما ألف فيها وما صنف في رحابها من فقه وعقيدة وعلم ودين ومنطق وطب وفلسفة وفلك وجبر وجغرافيا وغير ذلك من العلوم.. ولكن بنظرة خاصة وفاحصة لكتب الدين تحديدا من الفقه والعقيدة وغيرها والتي يتم العدوان عليها تحديدا وحصرها بكلمة التراث والاستهزاء به وبها؟

ماذا فعلت هذه الكتب في حياة المسلمين وما الرسالة التي قامت بها؟

لقد حفظت هذه الكتب للمسلمين دينهم وقيمهم وأخلاقهم ونظمت لهم تعاملاتهم ووجهت اقتصادهم وتجارتهم وكيانهم وكثير من سلوكياتهم الحياتية التي تخص التعامل البشري في الحياة.

فهل بعد هذه الإنجاز العظيم الذي حققته والرسالة الكبرى التي قامت بها أن آتي اليوم وأهدمها لمجرد وجود بعض هنات التي لا تخرج عن أصابع اليد الواحدة، والتي قيلت لظروف ما، أو كانت اجتهاداتها للتعبير عن حالة بعينها؟ فهذا تجرد وتنكر كبير للعدالة.!

وأكرر إن هذا الأمر وهذا الاجراء لا يفعله إلا صاحب هوى وغرض في نفسه وليس مفكرا ومحاورا منصفا عادلا.!

وإذا حدثنا هؤلاء المعترضين عن هؤلاء العلماء العلميين في مجالات الدنيا كالطب والفلسفة وغيرها، فإذا بهم يشيطون ويزمجرون ويتصايحون بقولهم: الان هؤلاء من تراثكم وهم أول من تم العدوان عليهم وتكفيرهم واضطهادهم وحرق كتبهم.!!

وهنا يجب أن نسأل أنفسنا سؤال مهما قبل الرد على هذه الشبهات أو محاولة الدفاع عن أحد الفريقين لنقول: هل تم الرد العلمي على ابن سينا وغيره ممن يدعي البعض أنهم تم اضطهادهم وحرق كتبهم؟؟

والجواب نعم قد تم الرد العلمي على كل ما قالوه وادعوه من أفكار وفلسفات، فناقش ابن تيمية آراء ابن سينا في نقد المنطق وناقش الغزالي آراء الفلاسفة في كتابة تهافت الفلاسفة، لقد تم الرد العلمي إذن والدفاع بالعلم والعقل، ولم تكن هناك مصادرة مباشرة أو أي نوع من أنواع القمع قد صدر من هؤلاء العلماء، وأن ما حدث من صور القمع والحرق كان سلوكا لبعض المتعصبين من التلاميذ أو الحكومات التي لم ترى وقتها أن هذه الأفكار لا تتناسب مع سياسة وتوجه الدولة، لكن لم يرد أبدا أن أحد هؤلاء العلماء حث على حرق وطمس فكر معارضيه.

أنت ترى اليوم العقاد وزكي مبارك وكثير من قادة التنوير أو الذين يعتبرهم قادة التنوير رموزهم وغاياتهم، وهؤلاء وغيرهم قضوا حياتهم دفاعا عن هذا التراث خاصة الأدبي والفكري منه.

ولك أن تتعجب من هؤلاء الذين يبغضون ابن تيمية وينسبونه للتكفير والقمع الفكري.. لك أن تتعجب من مفكر يساري كعبد الرحمن الشرقاوي والذي انبهر بشخصية ابن تيمية وكان له مؤلفه القيم (ابن تيمية الفقيه المعذب) من فرط إعجابه بشخصيته.

ومن هنا لا يجب أبدا أن أفرق بين التراث فأرتضي بعضه وألغي بعضه أو أعد بعضه تراثا وبعضه غير تراث أو أن أسلخ بعضه من جسد هذه الأمة وأترك البعض الأخر مما أعتقد أنه مدعاة للشين والازدراء.! فكلمة التراث كلمة جامعة لكل ما صدر عن هذه الأمة وكل ما أنتجته من كتب ومجلدات وابتكارات وأفكار واختراعات ومنجزات وسبقت به بقية أمم

الدنيا معرفة وعلما.. كلمة التراث تجمع الطب والفلك والدين والفلسفة وكل إصدارات وعطاءات علماء هذه الأمة في أي من هذه الميادين.

فهو حلقة جامعة مانعة شاملة لكل صور وألوان الرقي المعرفي الذي أنجزه المسلمون.

وكل هؤلاء العلماء الذين تم العدوان عليهم واضطهادهم أو حرق كتبهم ينتمون أيضا للتراث وهم جزء لا يتجزأ منه..!

فابن سينا والجاحظ رغم وجود موقف عقدي منهما حيث ينتمي الأول لفرقة الحشاشين القرامطة الباطنيين وينتمي الثاني للمعتزلة، فقبل هذا وذاك، لابد من الاعتراف بعظمتهما وقيمتهما في الأدب والطب والفلسفة وأن أحدهما رمز كبير علم العالم، والثاني ذخر كبير في تراثنا الأدبي لا يوجد مثله في بقية الأمم.

وقد كتبت مرة مقالا تحت عنوان: أختلف معك لكنك عظيم

أي مهما كان اختلافي معك لكنك عظيم القدر والشأن.

وهؤلاء الذين ينظرون نظرة سوداية للتراث العربي الإسلامي ولا يرون فيه شيئا أبيضا، ويتطرفون في الحكم على من يخالفونهم، لا يختلفون كثيرا عن المتطرفين الذين يكفرون من يخالفونهم ويحرقون كتبهم ويطالبون باضطهادهم.

وختاما نقول إن تراثنا يحتاج لمن ينظر إليه ويقيمه، أن يكون منصفا عادلا صاحب ضمير وقيم وخلق، فإذا لم توجد الأخلاق والضمير والقيم، سيحل محلها الحقد الحسد واتباع الهوى ووقتها لن يرى الناظر أي نور أو أي شيء يسره أو أي إيجابية يشيد بها.

صورة بعد ٤ عقود

انتشرت في الآونة الاخيرة، صورة العالم الجليل، وإمام المسلمين الأكبر الراحل د- عبد الحليم محمود رحمه الله، وهو يرتدي سترة داخلية تحت الكاكولة، لم يظهر منها إلا طراف كمها الأيمن وهو ممزق الأطراف، مهترئة التماسك، متراخية النسيج، دلالة على قدمها

وتهالكها، لتعطي حالة من الاعظام والإكبار للرجل الزاهد، الذي تقلد أعظم المناصب الدينية والحكومية، ومع هذا لم يتخل عن الزهد منهجا في الحياة.. وسبحان الله يحيي العظام وهي رميم، فمثل هذه الصورة التي يبلغ اليوم عمرها أكثر من ٤٥ عاما، قدر لها اليوم أن تبعث من جديد، لتعطي رسائل مهمة، لها قيمتها ودلالتها الدقيقة المثيرة.

كان أولها إظهار طبيعة العالم الديني المحترم الذي يتحلى بالزهد والورع ويكون عزوفه عن مباهج الدنيا أول معالم الترغيب فيه.. كشف حقيقة بعض العلماء والدعاة المخزية، الذين يلهثون وراء الدنيا، ويتقلبون في صور اللباس والزينة ومفاخر الحياة بكل حرص ونهم.

إظهار العجب من طبيعة بعض الصوفية، الذين قبلوا كل شيء في التصوف، إلا الزهد والتقشف، مع أنه أول الملامح التي يتحلى بها هذا العلم ورجاله ومريديه.

روعة المسؤول الحكومي الذي يثبت نقاءه ونظافة يده، ويقدم الصورة المثلى للضمير الحي الذي يزهد في اللباس فضلا عن الزهد في أموال الأمة.. ساقتني الصورة لأضع اليوم مقارنة بين الشيخ الراحل، وبين ما يفعله بعض الشيوخ المهرجين، وما يبتدعونه في مظاهر ثيابهم، لدرجة جنونية مبالغ فيها، حتى لتشك بأنهم يعانون من عقد نفسية، أو أنهم يتعمدون ذلك حتى يهدموا قيمة العالم الديني في أذهان الناس وتصوراتهم.

العالم الزاهد العازف عن بهارج الدنيا هو العالم القوي الجسور الذي يمكنه أن يقول: لا، إذا ما احتدمت الأمور، وفرض الصدام مع السلطة نفسه، وهو ما حدث في قانون الأحوال الشخصية، حيث تحدى الشيخ الدولة والحكومة، وسيدة مصر الأولى، انتصارا للدين والشريعة.

الدكتور علي جمعة عالم دين مصري وهو من هذه الطبقة من العلماء التي تحاول دائما لفت النظر وإحداث بلبلات فكرية ودينية بفتاويه وادعاءاته وتصريحاته الغريبة الشاذة، حتى يكون مسار الحديث بين الناس وضيفا دائما على الفضائيات.. ومن العجب العجاب أن الرجل ينتسب للتصوف والصوفية ، وحينما نذكره ونقارن بينه وبين الراحل الكريم دكتور عبد الحليم محمود، فإني دهشت كثيرا من بعض الصوفية الذين ينزلون الدكتور علي جمة

مقاما أكبر وأرقى من الإمام الراحل، ولا شك أن نابع من فرط الجهل بطبيعة الرجل الشامخ، بل هو الجهل الفاضح بطبيعة التصوف نفسه، يقولون إن الدكتور علي جمعة يأتي بالقماش الذي يفصل منه ملابسه من أوروبا، وبغض النظر فإن هذا لا يعيب الرجل لأن أغلب الأقمشة مستوردة من الشرق والغرب، ولكن تأمل ملابس الرجل، فإن حديثنا عنها خارج نطاق أنها قشيبة وجميلة ومهندمة وفخمة، لأنها تخطت هذه المرحلة وبلغت فيها رتبة الهوس والتشكيل اللوني الغريب والمتعمد ظهوره بها في حلقاته المتنوعة، أو كما يقول العامة: (على كل لون يا بتسطا).!!والصوفية المتشنجون لشيوخهم، ليس لديهم أي استعداد للحكم على انتسابهم للتصوف من مواقفهم وتعبيراتهم، فلمجرد أن يقول إنه صوفي، فهو فوق الشبهات، بل يخيل إلي أن الشيطان نفسه لو قال لهم: إنه صوفي لعظموه ومدحوه، إنهم يجعلون الرد على دعي التصوف ومخلفته والنكران عليه جريمة ترتقي للعدوان على التصوف نفسه، وهي حساسية تضر التصوف كثيرا وتضربه في مقتل.

يا كافر

كافر فاسق فاجر زنديق مبتدع.

كلمات كلها قاسية عنيفة شديدة، لا يرتقي مقام البوح بها والاتهام بها إلا أئمة كبار، لهم ما تبينوه من دواعيها وأسبابها، ثم هم لا يهدرون بها في كل وقت ومع كل حين، بل يجب أن تخرج حينما تخرج في أضيق نطاق وفي أقل الحدود.

لكننا مع هذا نألف قوما أو فتية يستمتعون بهذه الكلمات، ويشعرون في أجوافهم بنغم موسيقي وهم يرددون حروفها، فمن أسعد لحظاته، وجميل أوقاته، وألذ حالاته، حينما يوجه كلمة من هذه الكلمات لشخص يجادله أو يختلف معه، حتى ملأوا حياتنا بالنفور والصدود والعبوس.

أدرك النبي صلوات الله وسلامه عليه هول هذه الكلمة، والأبعاد الجسيمة التي تترتب عليها، فقال يوما: قال ﷺ: من قال لأخيه يا عدو الله أو قال: يا كافر فقد باء بها أحدهما يعني: إذا لم يكن من قيل له ذلك صالحًا لها رجعت إلى من قالها، فلا يجوز للمسلم أن يكفر أخاه، ولا أن يقول: يا عدو الله ولا يا فاجر إلا بدليل، فإذا رمى أخاه بالكفر وليس كذلك رجع إليه كلامه.

والمعنى التحذير، ليس معناه أنه كفر أكبر، بل معناه التحذير من هذا الكلام السيئ، وأن صاحبه على خطر عظيم إذا قاله لأخيه، فينبغي حفظ اللسان وأن لا يتكلم إلا عن بصيرة.

بل إن أحدهم ليفرح بخطأ صاحبه، وانحراف معتقده، لأن هذا الخطأ يؤهله للانتصار والظهور والغلبة عليه، بل يسوقه لأن يقول هذه الكلمة التي يستمتع بقولها، ويحن إليها ويتوق لنطقها وهي يا كافر أو يا فاسق.

تأمل هذا الأدب القرآني والرقي الرباني قال تعالى على لسان إبراهيم:

"وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ * [الزخرف:٢٦-٢٧]"، وقال:" قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ" [الممتحنة:٤]

أرأيت لهذه الرقة في معاملة خصوم العقيدة، إن إبراهيم لم يتلذذ كما يتلذذ هواة التفسيق والتفجير، ولم يسارع ليقذف بكلمات الكفر واللعنات الفسوق على من يستحقون، وإنما جاء هذا اللفظ الذي جمع بين الرقة والحزم، أنا بريء مما تعبدون.

خرج أبو حازم الصوفي يرمي الجمار في الحج ومعه قوم متعبدون وهو يكلمهم ويحدثهم ويقص عليهم، فإذا هو بامرأة حاسر قد فتنت الناس بحسن وجهها وألهتهم بجمالها، فقال لها: يا هذه، إنك بمشعر حرام، وقد فتنت الناس وشغلتهم عن مناسكهم؛ فاتقي الله واستتري، فإن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ. فقالت: يا أبا حازم، إني من اللاتي قال فيهن الشاعر:

أماطت كساء الخز عن حر وجهها* وأرخت على المتنين بردًا مهلهلا

من اللاء لم يحججن يبغين حسبة* ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فقال أبو حازم لأصحابه: تعالوا ندع الله لهذه الصورة الحسنة ألا يعذبها الله بالنار. فجعل أبو حازم يدعو وأصحابه يؤمنون، فبلغ ذلك الشعبي فقال: ما أرقكم يا أهل الحجاز وأظرفكم! أما والله لو كان من قرى العراق لقال: اعزبي عليك لعنة الله!

ولعل حال أهل العراق الذي ذكره الشعبي، قد سرت عدواه اليوم في كثير من المجتمعات ، وبين طوائف عديدة من المتدينين، فتراهم لا يأخذون بهذه الرقة ولا يعقدون في أنفسهم أي أمل في هداية المنحرف من الخصوم، وإنما فورا ينقلونه على الجبهة الثانية، والشاطئ الآخر بلا رحمة أو شفقة، وما هذا حال الهداة الربانيين، وما هذه طريقة الدعاة المخلصين.

أرأيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال عن الصبي اليهودي الذي أسلم على يديه ثم فخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقُولُ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنْ النَّارِ

هكذا يجب أن نكون وبهذا يجب أن نتحلى.

يقولون عن ابن عربي الصوفي أنه إذا جادل أحدا أو خاصمه في حوار، فكان الهادي السمح الرحب الأفق والصدر، فلا يرمي بالكفر، وما إلى الكفر من نعوت وألقاب، كما فعل الغزالي ولا يقذف بالزندقة والفجور كما صنع ابن تيمية، بل كان أقصى ما يرمي وأجرح ما يوجه هو أن يقول لخصمه في سماحة: لقد أخطأ عقلك ولم يخطئ إيمانك.

تماما كما قال للمجسدة والمعتزلة خلال مناقشته لهم في صفات الذات؛ فالإيمان عنده في القلب، أما الآراء فمن وثبات العقول.

نعم.. الدين مظاهر

الدين جوهر لا مظهر

ربنا رب قلوب

أهم شيء القلب

كلمات دائما ما تلوكها ألسنتنا، شجعت عليها بعض رؤى وتعاليم شرعنا المبارك، الذي يؤكد دوما أن نية المرء خير من عمله، وأن الظاهر يجب أن يكون كالباطن، وأن النفاق مذموم، وأن القول لابد أن يوافق العمل.. وعبر هذه القيم، تصور قوم منا، وعقليات من بيننا، أن الدين دين قلوب، ودين نوايا فقط، وأن هذه المناحي وحدها، هي التمثيل المعبر عن الدين، وحاولوا من هذا المنطلق أن يروجوا لبدع وجرائم ومعاصي، ترتكب بعيدا عن الدين، لأن الدين محصور في القلب والعقل كما يتوهمون، ومادام القلب نظيفًا فلا إشكال في علاقة المرء بربه مهما كان شكله الخارجي، فالشكل مجرد مظاهر لا علاقة لها بالدين..

فللمرأة حسب تصورهم أن تتبرج وتتزين وتتعرى وتخالف أوامر ربها، فإذا حدثتها تقول لك: أنا إنسانة جيدة وطيبة ولا أؤذي أحدا.. وما دمت كذلك فأنا أفضل بكثير من متدينات ومحجبات يفعلن الأهاويل، كذلك رجل منحل الأفعال مرتكب للموبقات يشرب الخمر ويلعب الميسر، فإذا حدثته يقول لك: انا إنسان جيد وأحب كل الناس، وأهم شئ القلب.. وأمام هؤلاء نقول: إن المظهر الذي لا يعترفون به، هو أحد سبل الدين وتنظيراته وتصوراته المهمة، فليس معنى أن المحجبة ناقصة وتفعل الجرائم أن المظهر الديني التي هي عليه مرفوض، وليس معنى أن الشيخ الملتحي يفعل الموبقات في السر، أن المظهر الذي هو عليه مرفوض.. لا يا أخي.. فالمظهر مهم، والمتدين مفرط في تخليه عما يناسب هذا المظهر من أخلاق الباطن، وكذلك المفرط محاسب على عدم إقامته لهذا المظهر حتى ولو كان صاحب قلب نبيل عظيم.

قرأت مرة للفيلسوف مصطفى محمود قوله: "إن الله تعالى مدح في النبي أخلاقه، ولم يمدح لباسه.." نعم ولعل هذا الكلام من باب الدعوة لأن يوافق القول الفعل، وليس الاهتمام بالجوهر وترك المظهر، والاهتمام بالداخل وترك الخارج..

إن المظاهر لها اعتبار في الاسلام.. ومن يعظم شعائر الله، فإنها من تقوى القلوب.. وكان أبو حامد الغزالي حينما انطلق في الاحياء يعيب على أدعياء التصوف مظاهرهم التي تنافي

دواخلهم، لم ينكر في النهاية مظاهر التدين، أو يشن الغارة على أربابها، وإنما دعا في النهاية إلى تطهير السبيلين معا حيث قال: " ففرقة منهم اغتروا بالزي والهيئة والمنطق ، فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء، وفي خفض الصوت في الحديث، ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يسوموا أنفسهم شيئا منها"

هل أخبرك أيتها السائلة: أن قلبك هذا وطيبتك هذه ونقاءك التي تتباهين به، لا قيمة له أمام تفريطك في المظاهر الدينية، التي أمر بها الله، وأخبر من خالفها أنه خالفه؟!

ثم بعيدا عن الجدال والشطط فيه.. ما رأيك أن نحتكم إلى القرآن والسنة، ونبحث فيهما عن إيمانهما وتأكيدهما على المظهر؟!

علينا أن نبحث عن المظاهر في الإسلام، وتأكيد الإسلام عليها كعنصر أكيد وقوي في لبنات بنائه.. إننا يجب أن نعلم، أننا ما دمنا نأخذ الدين بالرأي فلن نعرف شيئا ولن نهتدي لشيء.

وما دمنا نسمح لأنفسنا أن نجادل في أمور الدين بلا علم وفهم، معتمدون على عقولنا بعيدا عن النص الالهي، فلن نهتدي للحق أبدا.. أيها المنكرون للمظاهر، تعالوا معي إلى كلمة سواء.. لأقول لكم : إنكم تخدعون أنفسكم، وتحاولون الهرب بهذا الهراء الفارغ من تقصيركم.. تتهمون من يطالبكم بالتزام مظاهر الشريعة، وأنكم مفرطون فيها، بأنه لا يعلم عن علاقتكم بالله شيئا، وأنه يتدخل في الحكم على النوايا والقلوب، وهذا المنطق للأسف خداع الشيطان ألبسكم إياه، لأنكم لو كنتم تحترمون دينكم وتقدرون خالقكم، لأطعتموه مظهرا ومخبرا، قلبا وقالبا..

أرجوكم دعكم من الهراء واعترفوا بتقصيركم، وقبل أن أترككم أقول لكم: إنني لست إلها كما ستقولون، ولكنني إنسان أعصى الله سبحانه وأحاول أن أطيعه، ولكنني أبدا، لا يمكن أن أتفلسف، في ديني، وأحكم فيه بأهوائي، تماما كما تفعلون أنتم.

بين الجنة والنار!!

كانت غصة آلمت نفسي وصدمة أذهلت عقلي ومرارة تقرح منها قلبي حينما رأيت هذا الجهل الفاضح والأمية الطافحة لأبسط أبجديات ومعلومات العقيدة الإسلامية في عقول كثير من الشباب والشابات المسلمين الناشطين على الفيس بوك وهم يتحدثون عن إنسانية الدكتور مجدي يعقوب ويثيرون الحديث عن ديانته النصرانية ويستنكرون وبكل شدة على من يزعم أن يدخل هذا الرجل العظيم جهنم ويكون مآله في السعير ..!!

وأحب هنا أن أنوه وأذكر وألفت وأقرر: أنني لا أملك مفتاح الجنة والنار فأدخل فيهما من أشاء وأمنعهما عمن أشاء ولست كذلك ممن يملكون أبوب المغفرة كما يملكها قساوسة النصارى بزعمهم فيهبونها لمن يريدون ويمنعونها عمن يريدون، وما ذلك إلا لله وحده تعالى وتعاظم وتقدس ..

ولعل هذا الإقرار والاعتراف من نفسي سينفعني حينما أنهي حديثي ليقطع الطريق على الجهلاء الذي يؤولون حديثي بشكل مقلوب وطريقة معكوسة فميولهم للهجوم والعدوان تعلو على ميولهم لفهم المقصود أو تحري الحقيقة ..

إن المسألة كشفت لنا حجم المصيبة التي اعترتنا بسبب الجهل وقلة القراءة والأمية الدينية والتقصير العميق في معرفة الإسلام ، وهي السمة والهيئة التي تريدها وتعمل عليها منافذ التوجيه والتأثير في بلادنا والتي يسيطر عليها الشيوعيون والعلمانيون والملحدون.. حتى رأينا من ينكر معلوما من الدين بالضرورة، ورأينا من يقدم عقله ورأيه على رأي الشرع وكلمة القرآن ، ورأينا من يستخف بالنصوص المقدسة غير عابئ بحرمتها أو مكانتها، ورأينا من ينادي ليل نهار بما يخالف صريح الاسلام دونما وجل أو حذر أو خشية لله واتقاء لغضبه..

تقول كاتبة في صفحتها : (كيف يقال بأن الدكتور مجدي يعقوب سيدخل النار وهو الذي فعل وفعل من أجل الانسانية والإنسان أم أن الجنة حكرا على أصحاب اللحى والنقاب الذين لم يقدموا للإنسانية عشر ما قدمه الرجل.. حاولوا تفهموا دينكم وتعرفوه كويس؟)
والحق أنني أتعجب وأتساءل: من في الطرفين يجب عليه أن يفهم دينه ويقرأه جيداً؟ ولماذا تحديدا تم وضع أصحاب اللحى والنقاب في المقارنة ولم يوضع أي مسلم عادي ؟
ثم لم تكتف بذلك .. بل أتت بصورة لرجل أوروبي ينقذ طفلة صغيرة لاجئة من الغرق وقالت: أتريدون أن تقولون أن مثل هذا الرجل في النار أيضا؟ كلا وألف كلا..
وقد يستنكر البعض أن نشغل بالنا وقلمنا بمثل هذه الامور ولكني أرى أنها أوجب ما ننشغل به لأنها تصحيح للعقيدة في أذهان الغائبين وتعريف يقربهم من فهم دينهم وشريعتهم حتى لا يضلوا ويُضلوا.
وأؤكد مرة أخرى: إن الجنة والنار بيد الله ولا يجوز لأحد من الناس أن يحكم بأن فلانا من أهل الجنة وغيره من أهل النار فهذا بيد الله تعالى ولعل هذا الكافر أن يمن الله عليه بتوبة فيكون من أهل الجنان، ولعل كذلك هذا المؤمن يصاب بسوء الخاتمة فيكون من أهل العذاب فهذا كله بيد الله سبحانه ومما ينسب للصديق : لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدماي في الجنة .. لكننا اليوم أمام حكم ديني ومسألة علمية من مسائل العقيدة وهي هل النصراني مشرك بالله؟ وهل النصراني حتى ولو كان من الخيرين ومن منقذي البشرية في النار رغم بره وإحسانه بالناس ؟ هذا هو الحكم الذي نتكلم عنه وعليه .. والذين لا يتصورون هذا الأمر لديهم إشكالية وهي أنهم يعرفون أن الإسلام دين الإنسانية ويعلمون أنه دين الرحمة ومن ثم كيف لهذا الدين الرحيم أن يزج برجل من أعظم الخيرين ويجعل مآله إلى النار؟ ومن هنا لا يصدقون ذلك ولا يستوعبونه ، ولكننا نقول لهم : لقد غاب عنكم شيء هام جدا وهو : أن معركة القرآن الأولى وقضية الاسلام العظمى التي صارع الوجود من أجلها إنما هي معركة التوحيد التي من أجلها أرسل الرسل وأقام الحجج وأهلك الامم وأغرق فرعون.. نعم قضية التوحيد هي لب الاسلام ومقصده الاول في هذا الوجود ونفي

كل شريك عن الله وإفراده بالعبادة وحده سبحانه.. ولعلي أسوق هنا خبر عبد الله بن جدعان فعن عائشة قالت قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذاك نافعه قال لا ينفعه إنه لم يقل يوما رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين..يا ألله أيزول كل هذا الخير الذي قدمه لمجرد أنه كان كافرا ولمجرد أنه لم ينطق بكلمة التوحيد ؟؟ نعم. يزول كل شيء أمام كلمة التوحيد وهنا يأتي الدكتور يعقوب ليكون تماما كعبد الله بن جدعان لنقول فيه هل ينفعه بره وإحسانه أمام الله لو أنه أتى بالشرك ونفي التوحيد ؟ والجواب لا ينفعه بشيء لأن آمن بالضلالة وأشرك بالله، وانتحل ملة باطلة زائفة قال الله تعالى عن أصحابها : (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار * لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم * أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم) المائدة

ويقول تعالى : (وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ) آل عمران، وهكذا يحكم الله بالكفر ونحكم نحن بالجنة ولا نستوعب معركة القرآن الكبرى وقضية الاسلام الأولى في أمر التوحيد ..إننا نؤمن بالمعايشة والمواطنة ونحترم أهل الكتاب ونتعايش معهم ونتسامح في معاملتهم كما أمر الاسلام بل إن نصوصه الخالدة لتظهر ذلك وتحث عليه، يقول تعالى : (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين) ويقول : (من ظلم معاهداً أو انتقصه حقه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة)

ويقول : (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة ، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً)

هكذا تحرم الجنة على من يقتل معاهدا أو كتابيا على غير ملة الاسلام وهذا منتهى الرحمة والعدالة والاحترام للإنسانية والبشر الذين يختلفون معنا والذين قال الله فيهم لكم دينكم ولي دين.. وهنا تحدث اشكالية أخرى فأمام هذا الاحترام والحث على البر بهم ومعاملتهم يفهم البعض أن دينهم معتبر وانه دين سماوي وأن أهله ومعتنقوه على شيء من الحق يلزمون به أمام ربهم سبحانه.. وهو ظن خاطئ وشبهة مرفوضة فالله تعالى يأمرنا بمؤاكلتهم والتزاوج منهم ومعايشتهم ولكن ليس معنى ذلك أنهم مرضي عنهم أو مقبولين لديه!!

لا إنهم من المغضوب عليهم ومن الضالين ومآلهم كما أخبر الله تعالى ان هم ظلوا على شركهم إلى النار.. ونقولها بوضوح من معرفتنا بديننا: لو أفنى الدكتور مجدي يعقوب حياته كلها من أجل البشر فلن يوزن عمله عند الله بشيء ولن يكون له قيمة لو أتاه من المشركين ..أما لو لقيه من المسلمين فما أسعده بما أعده الله للموحدين الخيرين المحسنين.

إن البعض يعتبرون هذا حديثا متخلفا ورجعيا وانغلاقيا لإيمانهم الشديد بالمواطنة والمعايشة والاندماج الحضاري فاختلاف الدين ليس مناط الحكم على البشر وتحديد اتجاههم للجنة او النار.. وليسمح لي من يقول ذلك، فأنا أيضا أرى أفكارك منحرفة ومنحلة ومتحللة ومتشبعة بالجهل والغباء والغيبوبة عن سر عزنا ومجدنا وتقدمنا والذي عناه عمر رضي الله عنه بقوله : نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فإذا ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله ..إن أمثالهم يريدوننا أن نتحلل من ديننا وننساه ونلقيه خلف أظهرنا ونقبل على الحياة مع اخواننا البوذيين والمجوس وعباد البقر نعيشها حياة واحد لا دين فيها ولا توحيد ..فالمهم الوطن والانسان ..ولكننا نقرر أن الله تعالى أعظم من الانسان وأعظم من الوطن ورغبته تعالى فوق كل ميل ورغبة، كثيرة هي الاشياء التي لا يقبلها العقل والرأي من الدين ولكن الدين لا يؤخذ بالرأي وقد قال علي كرم الله وجهه : لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه! وننصح هؤلاء الذين يتهموننا بعدم فهم الاسلام أن يقرؤوا كثيرا عنه ويسألوا الشيوخ ويجالسوا العلماء ويتعرفوا عليه معرفة قوية وحثيثة على دينهم الذي جهلوه.. حتى قادهم هذا الجهل أن يدخلوا المشرك جنة الله التي حرمها عليه!!

عليكم أن تفهموا قضية الاسلام الأولى وما مقامها فيه ومصير الناس منها ..وليس هذا الحديث مؤججًا للعنصرية والطائفية فهي حقيقة ديننا التي ينطق بها القرآن ليل نهار.. وما هي إلا محاولة لشرح معالم الاسلام وأبجديات عقيدته لتصحيح المفاهيم المغلوطة والمعتقدات الخاطئة التي تجافي الاسلام ولا تقبلها تعاليمه..

حينما غابت درة عمر

قدر لنا أن نعيش في زمن يعج بالزنادقة والملحدين المارقين الذين يتجرؤون على الدين والقيم والثوابت.. فما بين منكر للقرآن ومكذب للسنة، ومهين للعلماء، ومسفه للدعاة وطاعن في التراث والتاريخ .! آه لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد.

لا تصدقوهم .. لا تنخدعوا بزيفهم وهم يرهبونكم بأشد الألفاظ، ويتعالى صوتهم وهم يرددون أنكم سدنة الرجعية، وكهان التخلف، ومنبع التطرف والارهاب والتكفير، حتى يعجزوكم عن جدالهم، ويخيفونكم من الوقوف أمامهم.. أعلنوا فيهم رأي الحق وقول الحق، صدعوهم بصولة الشرع، حتى لو كان كفرا وردة.. فلا تخجلوا أن تنعتوهم به وتلقوا عليهم رداءه الأسود، فما حدث ويحدث قد طفح وأسن وانتفخت منه مرارتنا.. وقف محمد الغزالي ليعلن في المحكمة أن فرج فودة مرتد عن دين الله..!

ماذا يا قومنا بعد القرآن و السنة، وماذا بعد رجال قيضهم الله لحفظ دينه وإيضاح برهانه؟!

إن أصوات الفجور تتعالى اليوم بلا حياء ولا خجل، تصول وتجول بلا حاسب أو رقيب.

إن الدنيا كلها تساندهم وتقف في ظهورهم، الحكومة والاعلام والمؤسسات، وجهل الشعب، وسلبية الشارع، كل هذا هيأ لهم المناخ وأطال لهم اللثام، فما من يوم يمر حتى يخرج ناعق يكيد لديننا كيد الحاقدين.

لمصلحة من يتم سلخ هذا الشعب من عقيدته ودينه؟!

لمصلحة من يتم تجريده من الايمان والهوية.

أتريدون شعبا لا دين له؟ لا ايمان له لا رب له؟!

آه يا عمر لقد نبحت الكلاب حينما غابت درتك، فمن لنا بدرة عمر؟!

واأزهراه.. أما الأزهر فلا يسعني إلا أن أتحسر على سيرة مضت وتاريخ ولى، يندب هذا اليوم الذي ترأس عليه شيخ إمعة لا حول له ولا طول ولا قوة.. وأين هو من الأسود الضواري، والعمائم المهيبة الثائرة التي كانت تصدع أركان الدنيا لو مس أحد الفاجرين أصول الدين، أو سولت له نفسه أن يهترئ على رموزه.. لا تبتعد كثيرا لنرجع سويا بضع عقود، تذكر ماذا فعل عبد الحليم محمود ووقوفه أمام جيهان السادات بصلفها وغرورها ونفوذها وسلطتها، حينما أرادت أن تقر قانون الشؤون الاجتماعية، لقد أحدث الشيخ عبد الحليم صدعا في جدار الدولة والدستور وهدد باستقالته وأعلن على الملأ ..أنا أو هذا القانون.! أما الشيخ الطيب فيبدو أنه يحب اسمه كثيرا ويريد أن يكون له منه نصيب.

والله إن الناس قد ضاقت، وقرائحهم ملت، وصاروا يترقبون اليوم الذي يأتي فيه من ينتصر لدينهم ويثأر لعقيدتهم.. فهل يأتي ذلك اليوم أم كتب كلينا أن نرى كل حين، تجريحا وتطاولا وشرخا في ديننا وعقيدتنا.؟!

الترف الفقهي

كتب الفقه القديمة ثورة علمية وعقلية هائلة، وهي في روعي من أثمن ما يميز تراث هذه الأمة الخالد، بل هي عندي في استخدام العقل وتنمية روافده أرسخ وأجدر من كتب الفلسفات والعقليات.. وكم هم على درجة كبيرة من الغفلة والسطحية، أولئك الذين ينتقدون هذا التراث، ويدعون لهجره وتمزيقه ورميه.

قدر لي دراسة سفر من هذه الكتب على المذهب الحنفي، وهو (الاختيار لتعليل المختار) الذي توفي صاحبه عام ٦٨٣هـ وكان الكتاب مقسما على أربعة أجزاء، حسب نظام التعليم في المرحلة الثانوية الأزهرية، كل سنة جزء خاص بها، ابتدأنا بالعبادات والطهارة وانتهينا

بالجنايات والوصايا.. كانت هذه الكتب بمثابة ترويض للعقل عبر مسائل وهمية خيالية يخترعها السائل ويدور حولها النقاش، ما الذي يجوز فيها وكيف الحل في أمرها؟ كانت هذه المسائل تعرض على الشيوخ، وكان الشيوخ يسألون طلابهم فيها، وكان الجميع ينشغل بالحل المثل والطريقة الأبرع في التعامل معها وفق الشرع والاستنباط من النصوص.

كنت أتعجب من أن يحدث في الواقع شيء من مثل هذه المسائل، وأقول ما الفائدة من دراستها وهي من قريب المستحيلات، ولماذا يقضي الشيوخ وطلاب العلم حياتهم ويشغلون أوقاتهم ويجهدون عقولهم في مثل هذه الخيالات، كانت نفسي ولساني يريد أن ينطق بأن هذا نوع من العبث، لكنني لما كبرت أدركت الغاية والفائدة الكبيرة من دراسة من هذه المسائل وقدرتها في تدريب العقل في التعامل مع النصوص، والمسائل التي تستجد مع الحياة، وليس لها أصل في الفقه تنبني عليه، كانت هذه المسائل هي البرهان المعلي العقلي على سعة الشريعة ومرونتها وتقبلها لكل جديد في الحياة، بلا شطط أو تكلف، كانت هذه المسائل كذلك تدرب عقل الطلبة وتنمي قدراتهم المعرفية، حتى لا يقف شيء في الحياة يعوق فتاويهم وعلمهم.. ومن هنا اتسم الفقهاء بالذكاء، وكان هذا الذكاء هو من أهم سمات الفقيه والركيزة التي تنبني عليها شخصيته وعلمه، بل من هنا كان تفوقهم على المحدثين الذين يلتزمون النصوص والحرف، وتجمد أمامه عقولهم، فلا تسعف الأمة ببصيرة ولاوعي ولا مخرج في كثير من الأزمات.

ومن ثم كان لابد للتسمية أن ترجع إلى أصلها، فكلمة تفقه أي فهم، وفي الحديث الشريف: "من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين" أي يفهمه، فهؤلاء شريحة الفقهاء يمكن لك تسميتهم بطائفة الفهم أو أهل الفهم والوعي، وغالب هؤلاء الفقهاء قد جمعوا بين الأمرين ، بين الفقه والحديث، فاكتمل علمهم وتوسع عطاءهم، حتى لا نسمح بوجوب فجوة بين الطائفتين من أهل العلم، ويظن البعض أننا نفضل إحداهما على الأخرى وننتصر لفريق دون فريق.. وكم أزمات شهدتها العصور الإسلامية وكان المخرج فيها لأهل الفقه، بما

منحهم الله من بصيرة وعقلية نضرة ثاقبة ، تربت على هذه المسائل الوهمية التي يظنها الكثيرون ترفا، ولكنها في حقيقتها كما قلت، تدريب عقلي، وصقل لمهارات الذكاء.

سأل أحدهم فقيها كان يتحدث عن (نواقض الوضوء) حيث سأله: أرأيت إن كان الرجل يحمل على ظهره كيسا مملوء بالفساء.. وانثقب الكيس.. وخرج منه ريح فلامس الجلد.. أينتقض وضوؤه؟ وسألت امرأة متزوجة من رجل لديه أكثر من زوجة: إذا كان الرجل في طبقة من الجنة أدنى من الطبقة التي فيها زوجته ويجوز له أن يزورها في طبقتها .. فهل يجوز له اصطحاب زوجته الأخرى التي في طبقة أدنى؟ وما ذنبي أنا التي أقوم الليل لأذهب إلى طبقة أعلى في الجنة؟ وزوجته الأخرى التي لا تقوم الليل بأي حق تزور طبقتي مع زوجي؟

إن مثل هذه الأسئلة تتحول لخرافات وهراء، لو أثيرت والأمة في حالة ضياع، وقد علمت أن هناك من يشجع على مثل هذا العبث الفقهي، وإغراق الناس فيه، حتى ينشغلوا عن مصير أمتهم، ومستقبلها وقضيتها.

التجديد بيننا وبين الإسلام؟

استمعت إلى كلمة معالي وزير الاوقاف والتي تمنى فيها أن يكون التجديد في الدين في عصرنا الحاضر على يد مصري ونابع من مصر، وكأنه يلوح لشيء معين وأمنية في نفسه، وأنا أتعجب من هذا الحديث الذي أشعر فيه أن وزير الاوقاف يغمض عينه عن الأعلام المجددين في الفقه والعلم في عصرنا الحاضر ممن تعرفهم الدنيا وأفادوا المسلمين في كافة بقاع الدنيا.. إن الحديث الدائم الذي يلمح بالتعصب لمصر وحصر كل المناقب على مصر وحدها، شعور طيب يعبر عن محبة القائل لوطنه، لكننا يجب أن نكون موضوعيين أكثر، فالحديث القديم الذي ذكره السيوطي من أن غالب المجددين من مصر، كان ذلك في الأزمان القديمة، لأن مصر في ذلك الوقت كانت حاضرة عظيمة تتفوق عن بقية البلدان الإسلامية بسعتها وتقدمها وثقافتها وجماهيريتها، وقد شاءت الظروف أن تجعل منها قبلة

المتعلمين والدارسين.. لكن العالم الإسلامي اليوم اختلف عن قديمة، وصارت حواضر الإسلام متنوعة منتشرة ولها أثرها العلمي والفقهي وفيها مدارس وعقول دارسة فاقهة مؤثرة.. ومن ثم أرى أن اعتماد الأزهري على كلام السيوطي، كان استدلالا خطأ يغفل الواقع والظروف.. ثم كانت هناك نقطة مهمة والتي شاعت وانتشرت مؤخرًا، ولا أعرف هل تعمد الأزهري إغفالها، أم تغاضى عنها بقصد ونية ومراد طوية؟

وهي كما ذكرها العلامة المناوي أن عملية التجديد ليس شرطًا أن ترتبط بشخص معين محدد، فيكون هو المجدد للدين، وإنما يمكن لها أن تتجسد في جماعة أو مدرسة أو تيار أو مذهب يحمل ملامح التجديد الإسلامي.

فهلا كان جديرا بالدكتور الأزهري أن يذكر هذه اللفتة، أم أنه يلح في تمثيل التجديد بالأشخاص والذوات؟ لا أعرف..! كما أن حواضر الإسلام على انتشار مساحته الهائلة شرقا وغربا، قد جعلت له عوالم مختلفة كل بيئة تختلف عن الأخرى بما يناسبها، وقد تجد لكل بيئة من يمثل لها صورة التجديد التي لا ترتبط بالأخرى، وهذا ما رأيناه في تجديد الإمام محمد ابن عبد الوهاب، والذي مازالت إلى اليوم تسير على منهجه السلفي منطقة الخليج، كانت هذه البلاد تحتاج إلى تجديده وقد تحقق، بينما لم تشعر به مصر ولم يؤثر فيها، لأن مصر وغيرها من البلدان لها طبيعة مختلفة عما كانت عليه منطقة الخليج في ذلك الوقت ولم تكن فيها من المشكلات الدينية التي انتشرت بالخليج الخليج.. وانظر مثلا لأثر العلامة المودودي في الهند وباكستان وكيف أن الرجل كانت له ملامحه التجديدية في بيئته والتي لم يكن لها تأثير في البيئات الإسلامية الأخرى، حتى وإن توافقت معها.

والتجديد عموما يكون في الملمح الذي اندرس في حياة الناس وأغفلوه، فأثر على دينهم وجعل له صورة غير التي كانت عليه، فلو أن الأمة مثلا تكاسلت عن جهاد العدو وتخاذلت عن مقاومته، وظهر فيها من يقاوم العدو ويدعو لتحرير البلدان الإسلامية، فعندي أن هذه المقاومة، تعد تجديدًا للدين تعيد له أصله الذي انتفى وأغفل من حياة الناس.

ولو أن البدع والخرافات انتشرت بين المسلمين، حتى تشوهت العقيدة الإسلامية، وتغيرت سمات الوحدانية، وظهر من يدعو إلى التمسك والاعتصام بكتاب الله وسنة نبيه، فهذا لون وصورة من صور التجديد المطلوب، كما نلمح إلى صورة المجدد نفسه، إذ لابد أن يكون مجددًا لكل المسلمين غير محصور على تيار بعينه، ولا يفسر مفاهيم الدين واجتهاداته ورؤاه من منطق أفكاره وانتماءاته، التي تخدم هذا التيار وحده دون بقية المسلمين.

ثم صورة أخرى مهمة وهي هل يُقصد بالتجديد الفقه والعلم والاستنباط والاجتهاد والافتاء في قضايا العصر بما يوائم تطوراته، أم العملية الدعوية الحركية التي تعيد الحضور الإسلامي على أرض الواقع؟ هذه هي أدق نقطة في توضيح عملية التجديد، ويبدو أن معالي الوزير ومن خلال حديثه، يقصد العملية العلمية لا الحضور الواقعي، والناس في هذا الزمان لا ينقصهم العلم ووضوح الدين، ولا يشح فيهم العلماء المجتهدون بقدر ما ينقصهم من يستطيع تجسيد صورة هذا الدين على أرض الواقع، ويعيد إلى الحياة تعاليمه التي اندرست والتي تعد اليوم من قبيل المحرمات والغرائب والمنهيات.

تجديد الدين لا يكون منزويا بعملية التجديد ويمارسها من برج عادي بوسائل التنظير والخطب وتأليف الكتب، وإنما لابد للتجديد أن يخوض ميادين التحدي والكفاح للعقبات التي تمنع عودة الإسلام إلى بريقه، ولابد له من تأثر قوي ودقيق حتى يستطيع أن يبلغ مفاهيم التجديد المنشودة.. بل بعض المدارس والتوجهات والمذاهب تحتاج نفسها إلى تجديد وإحياء، بعيدا عن الإسلام نفسه كدين شامل وككل كامل، فالصوفية مثلا تحتاج إلى تجديد وإحياء في مفاهيمها وطرقها فتنفي عن طريقها الغلو والانحراف والبدع والخرافات، وهل يمكن لمن يسير في ركاب الصوفية أن يكون معينًا لتجديد الإسلام كله، قبل أن ينجح في تجديد التصوف نفسه والمدرسة التي ينتسب إليها.؟

أزمة عقلية وأخلاقية

منذ الأمس استطعت أن أدرك بعمق مأساة النبي صلى الله عليه وسلم في معاناته مع المشركين، حينما كان الحق واضحا أبلجا، وهم يجادلون ويمارون إما جهلا أو عصبية.. بالأمس استطعت أن أقف على حجم الإرهاق حينما يتحجر العقل ويخاصم الأضواء، وتقف الحواجز العالية بينه وبين الفهم السليم.. بالأمس عرفت فعلا وواقعيًا معنى وتفسير بعض آيات القرآن الكريم التي وصفت المشركين بحجرية العقل وعمى البصيرة عن رؤية الحق أو قبول الإنصاف والصدق.

ما حدث من مناقشات في مقال سابق أصاب المرء بالدهشة والعجب والغرابة، والمحزن أن من وقعوا في سوءة العصبية والعماوة، وتسربلت الغشاوة على أفهامهم وعقولهم، كثير منهم من أصحاب العلم والشهادات العلمية والشيوخ ودكاترة الأزهر.

بل المريب أن أكثر من معلق كان يكتب ويقول: إلى الله الموعد، وبصيغة مختلفة: الموعد الله.. وموعدنا الله، وكأنني والعياذ بالله أخطأت في القرآن الكريم، وطعنت في السنة النبوية، وأسأت لمقام الصحابة الكرام، أو ألحدت في تعاليم الله، أو أهلت التراب على أعلام الإسلام من علمائه المصلحين، أنا رجل كل غايته أن يعظم الإنصاف، ويظهر الحق ولو على حساب نفسه وانتسابه الأزهري، ومن المعلقين من حاول التفلسف بأن عقدي لمقارنة بين شيخ أزهري فاجر، وبين شيخ سلفي، يوحي للأذهان ويصور لها أن الأزهر بغيض، والسلفيون أسما وأرقى.. ومن متعصبي الأزهر من تخيلوا من كلامي أنني من أبناء التيار السلفي، ونعتوني بالوهابية، وانساق بهم الفجور والسفه لسب الإمام محمد بن عبد الوهاب نفسه، الذي أحيا السنة وقمع البدعة، وكانت له جهوده التجديدية التي أشاد بها مفكرو الأزهر الكبار، وعلى رأسهم الدكتور محمد عمارة وغيره، بل عليهم مراجعة تاريخ الجبرتي ليروا ويقرؤوا ماذا قال الجبرتي في الدعوة الوهابية ورجالها وغايتها.

أظهر المقال أزمة في كبيرة في الفهم والوعي، وأزمة كبيرة قبل هذا في الإنصاف الذي يمثل الخلق والضمير والتربية، وكان الأولى بهم أن يعيبوا كتب السنة الصحيحة التي روت وسجلت أن من الصحابة من زنى وسرق، وكان الأجدر بهم وبنفس التشنج أن يقولوا مستنكرين: إن روايتك لهذه الأحاديث توحي للناس أن الصحابة زناة وسراق ولصوص.!

عجبا عجبا ما هذا الفهم الأخرق، وما هي العقول الضيقة المتقزمة؟! سارع أحدهم ليهدم قامة الحديث الشيخ الألباني، واعتمد على أن الرجل أخطأ في بعض الروايات، وحاول أن يصور هذه الأخطاء التي لم تكن إلى مجرد اجتهاد يؤجر عليه، بأنها فضيحة مدوية يمكن لها أن تخرجه من زمرة العلماء، ثم حاولوا الانتصار للأزهر الذي يطغى علمه على كل علم، بأن في الأزهر من هو أسمى وأعلم وأرقى منه علما وقدرة وفهما وهو سماحة الشيخ الدكتور أحمد معبد، وسرعان ما أدرج المعلقون مقاطع مرئية للشيخ معبد، وهو يشيد بعظمة الألباني ودخوله لفن الحديث قبل أن يدخل الفن للأزهر بعقود كمادة مدروسة، وبيّن اختلاف المحدثين في مسائل التضعيف واجتهاداتهم فيها بأنها شيء مختلف فيه، وأعلن هن هذه الاجتهادات للشيخ الألباني قليلة جدا، بل من المذهل أن بعضهم ذكرني بالشيخ أحمد عمر هاشم وهو من أعلام الأزهر في الحديث، والذي كان يتحدث في برامج إذاعة القرآن الكريم، ثم يروي الحديث ويقول في النهاية صححه الألباني أو حسنه الألباني.

حتى ولو كان هناك من يتحمس للأزهرين ويحكم بشاهق علمهم في الحديث وتفوقهم على الألباني، يبقى شيء مهم هو مسار الحكم الأول، وهو التراث الذي خلفه كل منهم، فمن من علماء الحديث في الأزهر والدنيا كلها، خلف وأنتج تراثا علميا ضخما كما خلف الألباني لدينه وملته؟ لا يوجد.. ولكن العقول تصر على التعامي وتدفعها عصبية جوفاء مشوهة لا تليق بأصحاب العلم والنظر السليم.

وعلى جانب آخر.. سارع أبناء التيار السلفي ليهاجوا الأزهريين الذين نفوا صفة العلم عن الألباني، وسبوا ابن عبد الوهاب، وقد تبين لي مظهر خطير في ساحة النقاش، حينما ظهر أن بعض الأزهريين أكثر تشددا وسبا وشتما من بعض أبناء التيار السلفي، وهذه لا شك آفة لا

تخدم الإسلام في شيء.. وبعضهم قال لي: لا أحب الجدال، ولكن أي جدال أيها العالم الفذ، ونحن نتناقش في أمر علمي، يمكن أن نصل في نهايته للاختلاف ولكل منا طريقه الذي يحترمه الآخر، والحق الذي غاب عنك وكان يجب أن تنطق به وهو أن تقول: لا أحب الهزيمة، أو لا أحب أن يخالفني أحد الرأي، هذه هي الجملة التي كان يجب بك ولك أن تنطق بها.

المقال الذي كتب في غايته الكبرى، كان يسعى إلى احترام العلماء قاطبة، ونبذ التعصب للمؤسسات والجماعات، والانتصار للحق وحده، لقد كان مقالا أخلاقيا فكريا في الدرجة الأولى، يدفع أبناء الدين على الطريق القويم، الذي يسيرون به في التعامل مع بعضهم البعض، بلا تحقير أو تقليل، ولكنه للأسف، بدلا من أن يؤصل لهذه الغاية لم تستطع الأكثرية أن تتنازل عن عصبيتها، ونسيت غاية الكلام، ورمت بنا في واد آخر، ويبقى السؤال المهم؟ هل يمكن لهذه العقول التي تنافرت أن تصطف يوما للصد عن دين الله والدفاع عن حرمات الإسلام ضد العلمانيين واليسار والملاحدة؟ أعتقد أنه لو حدث، فإنها ستكون صفوفا تحمل في راياتها غيوم الهزيمة النكراء، لأن الأجساد متوحدة والقلوب متنافرة.. وبعضهم لم يقرأ إلا العنوان وبضعة أسطر، ثم شرع بذكائه الموهوم للرد العنيف بتجن واتهام.. لقد كشف المقال عن مأساة نفسية وعلمية وأخلاقية، تحتاج إلى سنوات من التربية العنيفة، لتزيل هذه الألغام من العقول العطنة.

عالم مسلم لكنه غير مصري، تفوق في علم من العلوم، وشهدت له الدنيا كلها، فماذا يضيرني في هذا، هل تعميني الغيرة للأزهر أن أجرده وأحرمه من قيمته العلمية التي أنعم الله بها عليه، ولو أنني مسلم فاهم وعاقل، لأدركت أن تفوق هذا العالم نصرة للإسلام ودعما قويا متفردا للدعوة، وكان الأولى بهم أن يغيروا من البخاري ومسلم وكل علماء الحديث من أصحاب الكتب الستة، فلا يوجد فيهم واحد من مصر بلد الأزهر.! بقيت إشارة مهمة يجب التنويه إليها بقوة وهي أنني حينما ضربت مثلا في مطلع كلامي بالآيات التي تتحدث عن المشركين في عنادهم وغباوتهم، وعنادهم، لا يعني هذا أنني أتهم النقاد والمتحاورين

بالكفر والشرك، وأنا متأكد أن هذه التهمة ستوجه إلي لو لم أتداركها، فيبدو أننا لا نناقش عقولا، بل نناقش جماجم ملأتها الأهواء والإحن والضغائن والغباءات المدوية، ثم ترفع بعد ذلك شارات العلم وترتدي عمائم الدين.